اللسان الممر

عبد الوهاب الأسواني

١

زغرودة طويلة جاءت من أول النجع . . تساءلت النساء ، ولغط الصغار ، ورفع الرجال فئوسهم ولم ينزلوها ، ثم انتشر الخبر :

– شيخ العرب وصل !

رأت الجموع المحتشدة على الشاطئ المركب الشراعى يحايل الريح فى منتصف النيل ! فى مقدمته رجل أسمر ، شديد السمرة ، على رأسه عمامتان من « البفتة » كل عمامة تزيد على خمسة أمتار !

لوحت له الأيدى ، وزغردت النساء ، وهتف الأطفال باسمه ، وأطلق أحدهم ثلاث رصاصات من مسدسه للتحية .

جبل عال متموج على الشاطئ الآخر ، سفحه أخضر ، وقمته بيضاء ، برزت فى أحضانه مدخنة صغيرة كأنها تتحداه !

رسا المركب ، وقفز الرجل إلى الشاطئ فى رشاقة . . قصير القامة ، عريض الصدر ، عيناه ضيقتان حادتان . . أحاطت به الجموع ، تعانقه ، تقبل وجهه ، تتعلق بعباءته السوداء ، تمسك بجلاليبه الصوفية الثلاثة التى يرتديها واحدة فوق أخرى تحمد الله على وصوله .

تصاعدت الزغاريد من كل بيت مر أمامه الموكب ، إلى أن توقف أمام مبنى من الطوب الأسمر ، تتقدمه ثلاثة أعمدة حمراء وفناء واسع مكشوف .

جاءت من المركب حقائب كثيرة وصناديق كبيرة من الورق المقوى . .

وضعت على « بروش » من السعف ، ثم فتحت ، فظهرت قطع القماش الملونة .

تناول الرجل قطعة قماش صفراء وأعطاها رجلاً بجواره :

– ثوب لزوجتك يابن العم .

– أكثر الله خيرك ياشيخ العرب .

أمسك بقطعة بيضاء وأخرى حمراء ، وأعطاها شاباً فى السابعة عشرة :

– قميص لك ، وجلابية لأختك يابن المرحوم .

وتوالت الهدايا ، وتوالى الوافدون ، كل ينتظر دوره . وفرغت الحقائب أوكادت ، وبدأ فى فتح الصناديق الورقية .

– ثلاث صابونات لأولادك ياخالة . . باكو شاى لك يابن أخى . . علبة سجائر لك ياعم .

كان القماش من نصيب أهله الأقربين ، والصابون والشاى لبقية فروع القبيلة .

انتقلت العيون من الحقائب ، وتسلطت على وجه خمرى شديد النعومة يتوسطه أنف دقيق ، وشفتان على شكل القلب .

فتح ذراعيه وهتف بصوت حنون :

– أهلاً « بتول » . . أهلاً بالوجه المبروك !

دار عليها بذراعيه وضمها إلى صدره . . وقالت له امرأة طويلة ، بارزة عظام الوجه ، تضم تحت إبطها ثوبا أصفر :

– ربنا يحفظك لنا يازينة قبيلتنا .

أحس بنهدى الفتاة المتمردين فى صدره ، فسرت فى جسده رعدة ! أمسك بذقنها الناعم ، وقبلها فى خدها . . نسى نفسه وطالت القبلة أكثر مما يجب !

فأطلقها بعصبية ، وتناول قطعتى قماش وقال لها :

– واحدة لك ، وواحدة لأمك يابنت الأخ .

افتر ثغر الفتاة عن أسنان جميلة شدت أنظار الواقفين . . استدارت ؛ لتخرج فتبعتها الأنظار . . شالها القطيفة الأحمر المتآكل الأطراف ينسدل على قامة سمهرية وساقين برونزيتين ممتلئتين ، وقدمين كبيرتين حافيتين . حينما توارت عن الأنظار عادت إلى الواقفين عقولهم ، فاتجهت أنظارهم إلى الحقائب !

ظهر الحزن على وجه الرجل . . سمرته تحولت إلى سواد حينما اكفهر وجهه . . احمرت عيناه ، وقال لنفسه : أنت رجل ناقص ، شاب ذقنك ولم يشب عيبك ! تضم بنتاً من سن أولادك ! تعصرها على صدرك ، تضايق خدها الناعم بشعر ذقنك النابت ، ثم تزعم أنك أصيل النسب ، وأن جدك الأكبر كان من أصحاب رسول الله ! . ثم هاج فجأة وقال للواقفين :

– اخرجوا من « ديوانى » يا أسوأ قبيلة فى البلد ، يا « زبالة » العرب ، ياغنم !

خرج أكثر الواقفين ! بعضهم خرج ساخطاً ، وبعضهم طأطأ رأسه وسار فى صمت ، وبضعة أشخاص تحركوا خطوات ، وتوقفوا قرب المدخل .

المرأة الطويلة بارزة عظام الوجه لم تتحرك . . اختلج أنفها الطويل المقوس ، واحمرت عيناها الواسعتان ، ودارتا فى محجريهما . . التفت إليها وقال فى حدة :

– امشى من قدامى يا امرأة !

انفجرت المرأة دفعة واحدة . . ضمت بيسراها طرف عباءتها السوداء الخشنة ، ومدت سبابة يمناها فى وجهه .

– قبيلتنا غنم ياشمروخ يابن زينب العرجاء ؟ . . امتلأ جيبك بالنقود ، ونسيت أمك تحمل طبقها فى يدها ، تدور على البيوت ، تشحذ من كل بيت لقمة !

– أمى أنا يامغربية يا بنت كذاب القبيلة ؟

– من غير أمك ؟

– أمى كان لها الفضل عليكم جميعاً يا « زبالة » العرب ! . كل رجالكم ونسائكم أكلوا من صنع يديها !

– الذى قال لك هذا الكلام ضحك عليك ، ليأخذ منك ثوبين وقطعة صابون ! أصلك وفصلك أعرفه أنا ! كانت أمك – الله يرحمها ويسامحها ويدخلها الجنة – لاتلبس غير الثياب المرقعة ! ولاتأكل فى اليوم غير طقة واحدة !

– أنت (تقولى) هذا الكلام لأنها كانت أجمل من أمك ومن خالاتك وسبقتهن فى الزواج يابنت كذاب القبيلة !

– وكيف عرفت أنها جميلة وهى التى ولدتك من هنا ، وماتت من هنا يافقرى الوجه يا مر اللسان ؟

وأدخلت يدها تحت عباءتها ، وسحبت الثوب الأصفر من تحت إبطها ، وقذفته فى وجهه !

– خذ ثوبك اكس به واحدة من نسوانك ، وأقفل فمك عن سيرة القبيلة التى لولاها ما جاء لك ذكر !

واندفعت خارجة . . ووقف هو ساهماً للحظات ، والواقفون قرب المدخل يرمقونه فى إشفاق . . واندفع أحدهم من الخارج ليقول :

– العمدة وصل .

ودخل رجل طويل القامة . . يرتدى جبة وقفطاناً وعمامة صغيرة . . انحنى قليلاً ، ووقف . « شمروخ » على مشطيه ، وتعانقا . . سلامات ياعمدة ؟ . . حمداً لله على السلامة ياشمروخ . . كيف حال النجع ياعمدة ؟ . . وما أخبار بلاد الله يا شمروخ ؟ . .

وجلسا على أريكة خشبية خضراء ، متقاربى الوجهين ، وعمامة « شمروخ » تحول بينهما .

وتناول شمروخ لفافة خاصة ، أعطاها العمدة باسماً :

– ثوب لك ، وثوبان لنسوانك يا عمدة ، وخمسة ثياب للأولاد !

– نرده لك فى المسرات يا شمروخ .

وتوافد الرجال ، وفرشت عشرات البروش فى ساحة الديوان الواسعة ، وجلس الشبان عليها ، وجلس الكبار على الدكك وأسرة الحبال ، وتصاعد الدخان من كل المواقد ، استعداداً للعشاء الجماعى للقبيلة .

وسأل شمروخ عن شيخ البلد « علام » فقالوا له إنه ذهب لزيارة أحد النجوع البعيدة ، وسيدركنا عند صلاة المغرب ، فأرسل له هديته الخاصة مع أحد الشبان .

وسقط نصف قرص الشمس وراء النخل البعيد . .

. . ودخل غلام أسود ، جذاب الملامح ، عليه قميص أبيض وسروال من « العبك » يصل إلى قدميه . . شق الجموع فوق البروش حتى وقف أمام شمروخ ، وصاح بصوت رفيع غاضب :

– توزع حاجاتك ومحتاجاتك على النسوان وتنسى الرجال ! تظنى صغيراً فى

عينك ؟ هات ابنك الكبير يسحب نبوته ويبرز لى فى الميدان ! أو تعال أنت نفسك وسأثبت لك أن المرحوم أبى خلّف ولداً يقاتل التماسيح فى البحر !

هب شمروخ واقفاً . . احتضن الغلام . . عانقه . . ربت كتفيه . . قبل رأسه . . ثم تلفت حوله ، فلم يجد غير حقيبة صغيرة مغلقة ، وغير الثوب الأصفر الذى تركته المرأة الطويلة .

مضت لحظات وهو يتلفت فى حيرة ، حل بعدها إحدى عمائم ، ودار بها على رأس الغلام ، ونسقها له ، وضبطها ، فبدا الغلام الرفيع الأسود كقلم رصاص فوقه كرة كبيرة من القطن !

ولما هم الغلام بالذهاب أوقفه ، وناوله الثوب الأصفر ، قائلاً فى رجاء :

– أعط هذا الثوب ، وأنت فى طريقك عمتك مغربية بنت كذاب القبيلة !

* * *

رأى شمروخ ، فى مدخل الديوان ، رجلاً طويلاً ينحنى قليلاً ويحمل فى يده عصاً . . قام مهرولاً فاتحاً ذراعيه ، ودخل الشيخ « علام » بعباءته السوداء ، وتجاعيد وجهه الدقيقة تبتسم معه . . تعانقا طويلاً والشيخ علام يقول بلهجة ضاحكة :

– عندما قالوا لى « المطيَّن » وصل . . تركت المجلس وجئت !

وضحك الجالسون بصوت عال . . وجلس شمروخ والشيخ علام ويد كل منهما على كتف الآخر .

وانشغلت كل جماعة فى حديث جانبى ، وقام الشيخ علام وتربع على أريكة وحده وعنقه النحيل ينوء بعمامته الكبيرة ، وقال لشمروخ الذى كان يواجهه :

- سمعت بخبر « بتول » ؟

- مالها ؟

- ابن عبد الغنى الجوابرى ، تركها !

- تركها ؟

- أبوه أرغمه على تركها !

احمرت عينا شمروخ . . تساءل بصوت خافت يدل على الضيق :

- يخطبها ثم يتركها ؟

- هو لم يخطبها . . تكلم بشأنها مع أمها دون علم أهله .

- وافرض .

- هم يريدون أن « يطيِّنوا » الولد لبنت عمه .

- لكن ماذا يقول الناس عن « بتول » ياشيخ علام ؟

- أنت تعرف عبد الغنى الجوابرى . . يبيع حياته من أجل مليم . . يخاف على بنت أخيه أن يتزوجها غريب يشاركهم فى أرضهم ونخلهم !

- لكن نبينا قال للصحابة ، تزوجوهن فقيرات ، والله يغنيكم .

قال الشيخ علام بلهجة ضاحكة :

- لكن عبد الغنى الجوابرى يقول « تطينوهن » غنيات !

لم يبتسم شمروخ كما كان ينتظر الشيخ علام . . تساءل وهو يقلب كفيه الكبيرتين :

- وسمعة بتول ؟ . . ماذا تقول القبائل ؟

التفت العمدة إلى شمروخ ، وابتسم فى وجهه كأنه يطيب خاطره ، وقال فى رقة :

– عبد الغنى الجوابرى لايهتم بهذه الأشياء . . ربما لا يعرفها أيضاً . . أنا شخصياً أعتبره غير موجود !

برز عرق أسود فى منتصف جبهة شمروخ . . تجاهل العمدة وخاطب الشيخ (علام) قائلاً فى حنق :

– أنت تعرف السبب ، لكنك تداهن ! الجوابر يقولون إن نسبنا مشكوك فيه ! ويرفضون الزواج منا . . وأنت تداهن ! لماذا لاتكون صريحاً فى كلامك ؟

انتبه القريبون إلى حدة المناقشة ، فأداروا أعناقهم . . وقال العمدة بلهجة توحى بأنه يجد صعوبة فى السيطرة على نفسه :

– لاتعكر دمك بسبب مسألة فارغة . . حمداً لله على سلامتك .

انفعل شمروخ . . ضرب حاجز الأريكة وقال مهتاجاً :

– طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث . إذا لم يتم الزواج ، وبكل احترام أعمل كل ما فى رأسى !

توقفت الأحاديث الجانبية فى الحلقات القريبة والبعيدة . . تضاعفت التجاعيد الدقيقة على وجه الشيخ علام البرونزى وتوتر عنقه النحيل . . قال بلهجة معاتبة :

– غلطان أنت . . على كل حال نرسل فى طلب الشيخ فراج يرد لك اليمين .

– طبعا ستقولون إننى مجنون ! من يدافع عنكم يا « زبالة » العرب ، يا غنم تقولون عنه مجنون . . الجوابر يشككون فى نسبكم ويتركون بتتكم ؛ ليقول الناس عنها ويعيدوا ! فإذا غضبت لكم فأنا مجنون ! طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث . . إذا لم يتزوج معوض بن عبد الغنى الجوابرى بتول بنت محمد

على السوالمى أخلى الجوابر يندمون طول حياتهم !

رفع العمدة لفافة الثياب ، المهداة إليه ، من فوق حجره ، ووضعها على الأريكة ووقف . . فتح فمه ؛ ليقول شيئاً ؛ لكنه عاد وأقفله وخطا إلى الخارج والأنظار تتبعه . . وقال له الشيخ علام فى رجاء :

– ارجع بالله عليك يا عمدة !

لكن هذا استمر فى سيره دون أن يرد . . وقام بضعة أشخاص من كبار السن وخرجوا وراءه . . ثم قام بضعة أشخاص آخرين ، وتلفتوا حولهم ، ثم هموا بالخروج ، لكنهم عادوا وجلسوا فى صمت . . وقال الشيخ علام لشمروخ :

– نرد لك اليمين ، الله يبارك فيك وفى ذريتك . . الموضوع كله لا يزيد عن . . . .

قاطعه شمروخ بلهجة غاضبة وهو يلوى شفته :

– متى تتخلى عن المداهنة ؟

تراجع الشيخ علام برأسه إلى الوراء ، فمالت العمامة الكبيرة بالعنق النحيل إلى الخلف بأكثر مما أراد وقال لاهثاً :

– (زمان) كنا نسامحك ونقول : هو مجنون : لأنه صغير السن . . أنت الآن فى سن الأربعين التى نزلت فيها الرسالة على رسول الله . . نرسل فى طلب الشيخ فراج ونرد اليمين . . والله بالله يا شيخ لو خالفتنى أقاطع بيتك وديوانك ، ولا أدخل عندك طول العمر !

وقف شمروخ كأنه سيخطب . . لوح بيده صارخاً دون أن يتبه لعباءته تسقط وراءه :

– أنت مداهن والعمدة مداهن وكبار قبيلتكم تحولوا إلى مداهنين ، وأنا فى نظركم مجنون يحلف بالطلاق من غير تفكير ، وأنتم كل شغلتكم أن تردوا له اليمين يا « زيالة » العرب يا غنم ! طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث ، إذا لم يدخل معوض بن عبد الغنى الجوابرى على بتول أخلّى الصراخ يُسمع فى سابع بلد !

لملم الشيخ علام عباءته على كتفيه ووقف . . تلفت حوله كأنه يبحث عن شىء وهو يتمتم :

– اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

وخطا إلى الخارج فى عصبية أوضحها كبر سنه . . لكنه توقف عند الباب ، والتفت وراءه قائلاً ورعشة الغضب تلف صوته :

– أنت تريد خراب البلد يا فقرى الوجه يامر اللسان يابن زينب « المطينة » !

* * *

٢

تحت بضع شجرات على الشاطئ ، وقفت « بتول » تنتظره . . رأته يدخل غابة النخل بحماره الأنيق السريع . . ثوبه أبيض وعمامته بيضاء وحماره أبيض . . يظهر فى غابة النخل ويختفى ويظهر ويختفى كلمع البرق . . توغل فى أعماق الغابة وهبط . . علق اللجام فى جريدة غليظة يابسة لنخلة واطئة واستدار . . رأته يتلفت حوله فى حذر ، ويبحث عنها بعينيه . . صعدت مع الشاطئ بضع خطوات فرآها . . أسرع إليها الخطى وهبطا معاً . . جرتها ملقاة تحت شجرة وابتسامتها تزغرد . . أمسك بيدها :

– من رآك يا بتول ؟

– خائف ؟

– أبناء قبيلتك يا بتول . . أبناء قبيلتك . . آه لو رآنى أحدهم .

– أنا لا أخاف من الجن !

– كلام يا بتول . . كلام . !

– أنت خواف مثل أهلك .

– أنا موافق . . لكن من رآك ؟

أشارت إلى جرتها :

– هذه الجرة ، وغابة النخل ، وبحر النيل !

تلفت حوله فلم ير غير الشاطئ الشاهق ، والجبل الأبيض بسفحه الأخضر

وقته البيضاء ، تتحداه المدخنة على الشاطئ الآخر ، وجزء من مبنى المدرسة الابتدائية عند منحنى النهر .

– أنا أريدك (أحبك) يا بتول !

– وأنا أريدك يا معوض .

– ربنا يخليك ويجمعنا فى بيت الحلال يا بتول .

– يعلى مقامك ويشد حزامك ويشق لك فى البحر طريق يا « معوض »

غزت وجهه الأسمر سحابة من الهم ونظره يقع على رقعة مصفرة على كتف ثوبها باهت الحمرة :

– شيخ العرب أعطاك هدية ؟

– عمى شمروخ ؟ . . أهدى لى ثوبين . . واحد لى وواحد لأمى .

– شيخ العرب رجل طيب . . عيبه الوحيد ، أنه يحب الافتخار .

– أنا أريده .

– وأنا أريده . . لكنه يحب يفتخر .

ضحكت بتول وقالت :

– مرة جاءه شحاذ غريب يغنى على الربابة ، وقال له : أنا عملت فيك قصيدة شعر أنت وقبيلتك « السوالم » وغنى له أولها :

السوالم ناس عُمَدْ من زمان .

وشيخ العرب « شمروخ » رجل عَظْمان !

قبل أن يسمع آخرها أهدى له حماره الأسود . . وبعد ذهاب الشاعر قال له شيخ البلد :

« ماذا يقول الناس عنك إذا رأوا حمارك الغالى تربية العز ، يركبه رجل

يشحذ على الربابة ؟ » . . فركض وراء الشاعر وأدركه بمركب فى منتصف النيل . . أخذ منه الحمار وأعطاه نعجة !

– أقول لك يحب يفتخر . . مرة رأيت واحدة من قبيلتكم تطلب منه عشرة قروش ، فأدخل يده فى جيبه وأخرج منه جنيهاً . . أعطاه المرأة وقال لها : « حظك ! . . مادام خرج على حظك ، فهو لك » . . رجل فشخار !

– لا تقل فشخار يا معوض يا بن عبد الغنى الجوابرى . . شمروخ عمى .

– هو من قبيلتك وليس عمك يا بتول يا بنت محمد على السوالمى . . أنت وهو تجتمعان فى الجد الثانى والعشرين !

هزت رأسها مستنكرة :

– أبدا والله . . فى الجد العشرين !

سحابة ضئيلة بدت غريبة فى السماء الصريحة ، تعبر النيل . . وضع كفه بكمها الأبيض العريض على كتفها ، فمالت قليلا وانزلقت كفه وقالت فى دلال :

– اقعد ساكت يا معوض يا بن عبد الغنى الجوابرى .

– أريدك يا بتول .

– وأنا أريدك . . لكن اقعد ساكتْ .

نسمة خفيفة تمايلت معها حقول الترمس ، داكنة الخضرة ، المتدرجة مع الشاطئ الصاعد .

– معى حتى الآن عشرون جنيها . . بعد محصول القمح ومحصول البلح ومحصول المانجو ، أكون جمعت ما يجمعنا فى بيت الحلال غصباً عن أبى وعن كل الناس يا بتول .

– سمعت بما قاله عمى شمروخ يا معوض ؟

– ماذا قال ؟

– طلاق ثلاثة من نسوانه الثلاث . . إذا لم تتقدم للزواج منى الآن يجعل الصراخ يسمع من سابع بلد !

تلفت حوله فى ذعر . . رأى ثعلبين يظهران فجأة ثم يختفيان فى حقول الترمس . . قال لها بصوت مخنوق بالغضب :

– ولماذا يتدخل شمروخ فيما لا يعنيه ؟

– عمى طبعاً ويخاف على مصلحتى .

– أبداً . . هو يحب الجنازات كى يشبع فيها مناحة . . يفتح المشاكل ويملأ الدنيا بالصراخ ليتحدث عنه الناس . . ماله هو ومالنا ؟

– أنت زعلت ؟

هدوء صوتها الناعم مع نظرتها الضارعة أنْسَياه انفعاله . . تنهد . . سمعها تقول فى ضعف :

– أريدك يا معوض . .

رأى الشفتين فى شكل القلب ، تنفرجان قليلاً فوضع يده على كتفها . . احمرت وجنتاها وتهدجت أنفاسها ، ومال رأسها يستكين على صدره .

ضمها إليه بقوة ومال على فمها وأطبق عليه بأسنانه ، فدفعته بعنف ، وابتعدت ، ويدها تتحسس شفتيها ، وتعبيراتها توحى بالألم !

– إن شاء الله يأكلك تعبان يا معوض وتموت !

– سامحينى يا بتول .

بدت كالنمرة الصغيرة المتوثبة عندما انفعلت ومدت سبابتها فى وجهه :

– وحياة بحر الله الطاهر . . ما أخليك تشوفنى تانى .

قال فى ضراعة :

– محقوق يا بتول . . سامحينى يا أخيّة .

انشغلت فى تحسس شفتيها ، ومضى يتطلع إليها وقد بدا على وجهه تعبير الشعور بالذنب . . رأى الألم يعتصر وجهها الحلو ، وقال لنفسه : يا ليتنى مت . . انزلقت عيناه على الجسد بديع التكوين ، فالساقين الطويلتين الممتلئتين ، فالقدمين الكبيرتين المشققتين ، وقال لنفسه : أسرع بجمع النقود قبل أن يخطفها العرسان منك .

– محقوق أنا يا بتول .

. . وشت عيناها الواسعتان السوداوان بتعبير الأسف ، وهى تتأمل عوده الفارع ، وأنفه الوسيم ، وخصلة الشعر المعقدة مثل كرة الشوك ، تطل أسفل عمامته شبه الحريرية ، ويده ممدودة فى الفراغ تتضرع ، والهواء يلعب بكمها الحريرى ناصع البياض .

– خواف أنت مثل أهلك ، لكنى أريدك يا معوض .

– وأنت مجنونة مثل أهلك وأنا أريدك يا بتول .

– أهلى أنا مجانين ؟ . . أهلى أعظم من أهلك . . عندما يموت عندكم رجل تبكون عليه قليلاً ، وتدفنونه . . حتى العزاء عندكم لا طعم له . . أما نحن فالفارق كبير . . نزل كلنا إلى « المناحة » عليه . . الكبار والصغار والرجال والنساء . . الطبول تضرب عليه سبعة أيام حتى إننى سمعت أن شيخكم القديم قال قبل أن يموت : « يا ليتنى كنت من « السوالم » ؛ ليشيعونى إلى مقرى الأخير بما يليق بى ! »

قالت ذلك وضربت قدمها بالأرض ، فزقزق خلخالها الردىء الفضة . . فقال لها باسماً كأنه تذكر شيئاً :

– ولّفت (ألّفت) فيك قصيدة شعر .

نطق كلمة (شعر) بضم الشين .

صفقت بيديها وضربت الأرض بقدمها قائلة بسرعة :

– قول يا معوض .

مد عنقه إلى الأمام وغنى . . كان صوته خافتاً وطرف عمامته يهتز مع اللحن :

يا أمّ خلخال فى الساق يرنّ .
غابات وأجراس تدنّ .
أنا فى غرامك راكبنى جنّ .
من دى الحالة – أوْلى انسجنْ

الصوت مقبول واللهجة مزيج من البدوية والصعيدية والسودانية . .

فركت بتول كفيها ، ولمعة خفيفة ذكية تبرق فى عينيها كأنها تتخيل نفسها تغنى لصديقتها « آمنة » ما قيل فيها :

– قولها ثانى يا معوضْ .

وعاد يغنى فى شغف على حين كانت شفتاها تتحركان للحفظ وعيناها تبرقان فى شقاوة .

– أنا فكرت أقابل (أبوك) يا بتول . . أقول له احجز لى بتول حتى أستكمل النقود ويكون هذا سرًّا بينى وبينه .

تنهدت وهى تقول :

– أمى أفضل منه فى هذه الناحية .

– لكن أمك امرأة . . إذا تقدم لك أى واحد فلن تستطيع رفضه بدون تبرير .

– أبى لا فائدة منه . . منذ تزوج المرأة الجديدة هجر النجع وأقام عندها . . حتى نفقاتنا نحصل عليها بالقتال ! اتفق مع رجل من رجال القبيلة أحسن .

– لا . . أقابل (أبوك) أفضل .

– هات واحداً من رجال قبيلتك ، واتفق أنت وهو مع واحد من رجال قبيلتنا .

– كلهم رفضوا . . أعمامى وأولاد عمى الكبار وكلهم . . ولو ذهبت وحدى لأى واحد من قبيلتك فسيقول عنى صغير السن ، ويتكرر ما حدث . سأذهب لمقابلة (أبوك) أحسن .

شبكت أصابع يديها أمامها وقالت فى ضيق :

– أبى لا فائدة منه قلت لك !

انتبها على مركب شراعى صغير ، يقوده غلام أسمر ، على رأسه طاقية ملونة جديدة ، وثوب قديم ملىء بالثقوب ، يدور بالمركب ليتفادى صخرة كبيرة تمتد فى النيل ، لها شكل وحش أسطورى .

تراجعا إلى الوراء ، وتواريا وراء شجرتين ، لكن الغلام لمحها ، فنهض واقفاً ، والدفة بين ساقيه ، ووضع كفه على قلبه وقال بصوت رفيع متوجع :

– آه من نار الغرام يا جماعة . . طحنتنى وأكلتنى وبلعتنى فى بطنها والله يا ولاد الحلال !

ثم وضع يده تحت أذنه ، وأطلق صوته بموال « أحمر » يشكو فيه الحبيب الذى يعتقد أنه صغير السن ويتجاهله على حين أنه شاب قبل الأوان ؛ لأنه يعرف أشياء لا يعرفها الكبار أنفسهم !

وما لبث أن توارى فى منحنى النهر ، فخرجا وهما يتنفسان الصعداء ؛ لأنه ليس من قريتهما !

– أقابل (أبوك) وإذا اعتبرنى صغير السن ، وطلب أحدا من أهلى.. فسأذهب إلى أبى ، وأهدده بأننى سأقتل نفسى إذا لم أتزوج بتول !

– طيب .

– سأخبرك بالنتيجة .

– متى ؟

– بعد يومين . . فى مولد الشيخ عامر .

– وكيف أراك فى زحام المولد ؟

– أنتظرك فى الدرب الذى شرق المقام . . فى اللحظة التى يقول فيها مؤذن الظهر « الله أكبر » .

– طيب .

– أوهمى كل جماعة من البنات أنك تسيرين مع جماعة أخرى . . وهناك زحام طبعاً .

– طيب .

فى غابة النخل . . كان ثلاثة من تلاميذ المدرسة الابتدائية ، يدورون حول الحمار الأنيق بسرجه ذى القطيفة الخضراء . .

تلفتوا يمنة ويسرة بينطلوناتهم الصفراء ، المثقوبة فوق الركب ، وقال أطولهم :

– معوض بن عبد الغنى الجوابرى ، طلقٌ بتول ، ومع ذلك يأتى فى بجاحة ليربط حماره فى نخل قبيلتنا . . كأن قبيلتنا خلت من الرجال ، أوكأننا متنا !

ووقفوا فى شبه دائرة ، يتآمرون برءوسهم المحلوقة بالموسى ، وأعناقهم الرفيعة السمراء . . ثم لوحوا للحمار بأيديهم حتى ابتعد عن النخلة . . وحلوا حزام السرج ، وأعادوا ربطه من جديد ، واستغرق هذا منهم وقتاً طويلاً . . بعدها تواروا وراء بضع نخلات متلاصقة ينتظرون صاحب الحمار !

جاء معوض يدوس على نبات السعدة الهش الزاهى الخضرة بحذائه الأنيق ، ويقع الشمس المستديرة تسقط على صدره من أعلى الغابة ، فتلمع معها صدريته المخملية السوداء .

أمسك باللجام ، وأدار طرفه على كف يسراه ، وقفز إلى أعلى فى مهارة المعتد بنفسه ، وجلبابه الحريرى الأبيض يطير معه كالمظلة . . لكنه فوجئ بالسرج يتزلق به إلى الناحية الأخرى ، وبنفسه مطروحا على ظهره !

وانطلقت ثلاث صفارات صغيرة تضحك فى شماتة دون أن يراها ! فقال فى غيظ وهو يقف ويتأمل ظهر جلبابه الذى تحول إلى الأخضر الفاقع :

– الحق على أمهاتكم يا قبيلة غجر !

* * *

٣

– أنا مسكين يا امرأة . . مسكين . . من أين لى الفلوس لأزوجه ؟ . . من أين ؟ . . ما الذى فعله حتى أزوجه ؟ . . عمره سبع عشرة سنة ولم يفعل أى شىء غير نهب أموالى ! طول النهار يلبس قمصان الكشمير وجلاليب الحرير وقفاطين الشاهى ، ويدور على النيل يحملق فى البنات الخسرانات ، ثم فى آخر المطاف يأتينى ليقول لى : إنه يريد الزواج من بنت محمد على السوالمى ؟

قالت الزوجة بنبرة باكية :

– تسببت فى موت أخيه ، وتريد أن يموت هو الآخر ، وأقعد أنا بالملابس الحزينة طول عمرى !

– أولادك لهم عقول مثل عقول أخواتهم ! . ماذا أفعل لهم ؟ . . واحد يقول لى يريد الزواج من بندر « كوم أمبو » والآخر يريد الزواج من بنت محمد على السوالمى . . عجائب ! وبنت عمهم ؟ . . مالها ؟ . . يتيمة ومسكينة ولن تكلفنا كيلة غلة !

– ولدى الكبير قتل نفسه ، والولد الباقى تريده أن يقتل نفسه !

– وبنت عمه يا امرأة ؟ . . هه ؟ . . أنا أتعب وأبوها الله يرحمه يموت من شدة التعب ، ثم يأتى واحد لا نعرفه يشاركنا فى نصف القيراط والنخلتين والشجرتين من غير تعب لأن ابنك عشق بنت محمد على السوالمى ! . . ثم من أين لى المال لأزوجه ؟ . . أنا مسكين يا امرأة . . والله لو تعلمين حالى

لتعجبت ! كيف أعيش حتى الآن والهموم ترقد فوق قلبى ؟ . أنا مسكين . . لا أحد يشفق علىّ ولا أحد يرأف بحالى غير المرحومة أمى ! كانت الله يرحمها هى الوحيدة التى ترأف بحالى .

ومدكم قميصه الأبيض الذى تحول إلى رمادى ، وقربه من وجهه وانخرط فى البكاء !

وقامت المرأة . . نفضت جلبابها الأزرق ، لباس الثكالى ، ودخلت حجرة مسودة الجدران . . أسندت ظهرها على الفرن ، وأراحت رأسها على كفها ، وقد أيقنت أن لا فائدة من النقاش . . .

كف عن البكاء فجأة وتلفت حوله كالمذعور . . السماء تحولت إلى رمادية وبدأت أصوات الليل تزحف . . قام وخطا مسرعاً فى اتجاه حجرة فى أقصى البيت عليها قفل ضخم . . أمسك بطرف خيط غليظ يتدلى من سرواله ، وتحسس مفتاحاً صغيراً . . مضى يعالج القفل ، وقد بدا بثوبه الأغبر على حجمه الضئيل كالفأر ! دخل الحجرة وأغلقها وراءه . .

وقف للحظات حتى اعتادت عيناه الظلام . . وضح له صندوق ضخم فى أحد الأركان فوقه مصباح غازى صغير . . أشعله ، وأحضر جوالا طويلا فرشه بجوار الصندوق وعلى شفتيه ابتسامة ظافرة .

فتح الصندوق وأخرج منه أكياساً قماشية صغيرة . . وضعها على البرش فى صفين متناسقين ، ومضى يدلك كفه بالأخرى ولسانه يلعق شفته السفلى بحركات عصبية .

فتح أحد الأكياس وأفرغه على الجوال . . لمعت على نور المصباح ، قطع ذهبية مستديرة مما تلبسه نساء القرية . . قلّب فى الكومة الصغيرة بشغف ، وملأ

كفه وقربها من عينيه كأنه يشمها ، ثم أعادها . . فتح كيساً ثانياً وأفرغ ما فيه بجوار الكومة الأولى . . مثلثات ذهبية رقيقة . . الكيس الثالث من المستطيلات ذات الرسوم الهندسية . . بضعة أكياس أخرى من العملات الفضية القديمة عليها أسماء سلاطين آل عثمان . . صفين جميلين رائعين ، من الذهب والفضة وبنت محمد على السوالمى تريد نهب أموالى ! . أمسك بطرف جلبابه ورفعه إلى أنفه وتمخط . . زحف على أربع متجنباً بعثرة الصفين ، ومد يده داخل الصندوق . . أخرج بضعة أكياس خفيفة . . كون صفًّا ثالثا من أوراق البنكنوت . . أمسك بكيس مربوط بخيط غليظ وتحسسه وهو يعقد ما بين حاجبيه . قالوا له : الحكومة طلبت استبدال البنكنوت فئة مائة الجنيه فلم يصدق . . ربت الكيس وهز رأسه متأسفاً ! .

أعاد كل شيء إلى حاله وخرج . . دخل حجرة الموقد فرأى زوجته بثوبها الأزرق . . عيناها الواسعتان الجميلتان تنظران إلى لا شيء !

جلس بجوارها متكوراً على نفسه وهو يقول فى ود :

– غاضبة منى يا بنت الحلال ؟

– لا .

– ولدنا صغير السن .

– من فى مثل سنه خلفوا .

انفعل فجأة :

– مالى أنا ومال غيره ؟ . . من يملك الحناء يحنى ذيل حماره ! فمن أين لى الحناء أنا المسكين ؟

ثم تذكر فجأة أنه انفعل بلا سبب ، فقد أصابعه الرفيعة كالمخلب وربت

خدها ملاطفاً :

– هاتى لنا العشاء يا بنت الحال .

وأحضرت إناء نحاسيًّا أسود ، مملوءا إلى نصفه باللبن ، وفتتت فيه رغيفاً من الشعير ووضعته على النار . . فسألها وهو يحك رأسه :

– بعت اللبن ؟

– بعته .

– والبيض ؟

– بعته .

– الحمام تحته فراخ ؟

– زوج واحد .

– بعته .

– لا .

– ربنا يبارك فيك يا بنت الحال . . تساعدينى أنت على هموم الدنيا الراقدة فوق قلبى . . هاتى الفلوس !

* * *

٤

قبل الغروب بقليل هبط « معوض » إلى النيل بصحبة ابن خالته « سلامة » ابن الشيخ علام . . على كل منهما جلباب صوف أنيق فوق قفطان الشاهى ، وعمامة بيضاء مزهرة لها شراشيب خضراء .

هذه ليلة النصف من شعبان التى ترحل فيها القرى بنسائها وأطفالها إلى قرية « دراو » . . قبل هذه الليلة بفترة طويلة يتنادى البحارة فوق المراكب الأسوانية فى طول البلاد يذكر بعضهم بعضاً الليلة ليلة « الشيخ عامر » المباركة . . المراكب التى تحمل الجرار والحجارة فى نيل القاهرة ودمياط والإسكندرية تفرد قلوعها قبلها بشهرين ، وتتجه إلى الجنوب ، والمراكب التى ترسو على شواطئ أسوان العاصمة تفرغ حمولتها ، وتستدير ؛ لتتجه إلى الشمال .

رأى معوض وسلامة مراكب القرية تدور على شاطئها الشمالى المنحنى من أوله إلى آخره . . وعند منحنى النهر ظهرت مراكب « السوالم » السبعة تقترب مع الغروب فى صفين ، وفى مقدمتها يتخايل المركب الضخم الأبيض « الطوفانى » يقوده « حنظل القاضى » كبير بحارة السوالم بشاربه المشرع !

مظاهرة سنوية معروفة يقوم بها بحارة السوالم . . يتواعدون كل عام على مكان معلوم يلتقون فيه ، ثم يدخلون مياه القرية « الإقليمية » فى مظاهرة مساء ليلة النصف من شعبان كى يتصايح الناس من شواطئ القرية « أسطول السوالم . . وصل ! »

لا أحد يصدق أن الليلة هى الليلة المباركة فعلاً ما لم يشهد دخول الأسطول السوالمى . . كأنه هلال رمضان !

هبطت البنات إلى النيل بثيابهن الزاهية ، وشيلان القطيفة تبرق فوق رءوسهن ، ونزل الشبان الصغار ، بعد أن شبعوا عراكاً مع الخياطين الذين تأخروا فى خياطة جلاليبهم الجديدة . . لا حساب هنا لعيد رمضان أو لعيد الأضحى . . نصف شعبان فقط هو الذى يُلبس الجديد من أجله وتشد إليه الركاب !

كانت بتول بثوبها الأحمر الجديد وشالها القطيفة الأصفر – كأنها فى ليلة عرسها . حينما هبطت إلى المركب الأحمر الكبير الذى يحمل وحده ربع النجع ، صمت الشبان فجأة ، وتلفتت النساء ، ومصمصت العجائز شفاهها ، ووضع الولد الأحول محمد قمر الدين يده على قلبه وقال بأعلى صوت : « أنجدنى يا شيخ عامر من الهلاك ! »

وفوجئت بتول بمعوض يجلس فى مقدمة المركب الذى جلست فى أرضيته ، وتعجبت من جرأته ، لعلمها أن شبان قبيلتها يتمنون التحرش به ! لكنها لما رأت ابن خالته « سلامة » بجواره ، عرفت أن الأخير يسبغ عليه حمايته ، لأنه « نزيله » كما تقضى التقاليد .

شيخ العرب شمروخ جلس فى مركب صغير أنيق بين العمدة وشيخ البلد علام ، مع ثلاثة من كبار السن فى السوالم ومعهم عائلاتهم فى أرضية المركب .

وحانت لحظة الرحيل ، ووقف الناس يتلفتون فوق المراكب ينتظرون إقلاع « الطوفانى » بحمولته الزاهية إيذاناً ببداية الرحلة . . وزغردت النساء ، ودقت الدفوف حين رأوه يستدير ويتجه إلى عرض النهر ، وفردت المراكب قلوعها

وامتلأت صفحة النهر ببضع عشرات من المراكب من مختلف الأحجام . . وفى أعلى سارية الطوفانى ، راية حمراء يقال : إن « سالم الكبير » كان يحملها فى اليوم الذى قاد فيه شيخ العرب همام الهوّارى قبائل جنوبى الصعيد ضد المماليك .

نظرات كثيرة متبادلة ، بين معوض وبتول دون خوف : فالشبان مشغولون فى الحملقة فى البنات ، والبنات يتظاهرن بعدم الاهتمام ، وفى الوقت نفسه يقمن بحركات استعراضية لاسترعاء الأنظار ! كانت بتول سعيدة بهذا الجو المتحرر الذى لا يتكرر غير مرة كل سنة . . إلا أنها شعرت بالضيق حين رأت ابن قبيلتها الولد الأحول محمد قمر الدين يجلس فى مقدمة المركب ، ويسلق « معوض » بلسانه بطريقة غير مباشرة . . كان يقلد والد معوض فى سخرية مرة ، وشبان السوالم حوله يضحكون :

– ولماذا أزور الشيخ (عامر) ؟ . . كان رضى الله عنه رجلاً طيباً يحب المساكين أمثالى . . لا أظن أنه يغضب منى إذا عرف أننى فضلت الكحت فى الأرض على زيارته ! ذلك لأنه يعرف أننى لو لم أكحت فسأموت جوعاً ! . ثم لماذا أرسل له خروفاً أو نعجة لتذبح على عتبة مقامه المبارك ؟ . . هل فى استطاعته – رضى الله عنه – أن يأكل كل هذه الذبائح فى يوم واحد ؟ . . مسألة الخراف والنعاج ما هى إلا نوع من الاحترام ليس إلا . . لذلك بعثت إليه – رضى الله عنه – بقرش صاغ كنوع من الاحترام ؛ ليوضع فى أعز مكان من مقامه المبجل !

فى المركب الصغير الأنيق قال شيخ العرب شمروخ لمن حوله ، وجلاليبه الصوف الثلاثة تظهر واحدة وراء الأخرى من فتحة الصدرية الطويلة :

– أنا أجّلت « الحرب » مع الجوابر لحين نهاية مولد الشيخ عامر لثلاثة أسباب :

السبب الأول : هو خوفى من غضب الشيخ عامر إذا ظن أننى تعمدت إفساد ليلته .

والسبب الثانى هو أن قبائل بلدنا فى حاجة إلى الاتحاد الآن ضد بعض القرى التى تضيق بنا كلما رأتنا فى المولد .

قال ذلك وصمت . . فسأله العمدة :

– والسبب الثالث ؟

– الثالث ؟ . . هل قلت (ثالث) ؟ . . لا ، لا ثالث يا عمدة !

ثم وقف يتلفت حوله ، الشمس هبطت وراء جبل « أبو شهاب » والمراكب تباعدت بعضها عن بعض كقطع الليل الصغيرة داخل الليل ، وأصوات دفوف بعيدة وراء منحنى النهر ، من مراكب إحدى القرى تغنى للشيخ عامر الأغنية المشهورة « جيناك زوّار يا بو محمد » .

* * *

شق معوض الزحام إلى أن وصل إلى الدرب الذى يقع شرق مقام الشيخ عامر . . الصحراء الواسعة أمام المقام امتلأت بفرسان القرى يتسابقون بخيولهم . . تجمعات كثيرة تناثرت فى الصحراء : بعضها يقيم مولداً نقرأ فيه المدائح للرسول ، وبعضها حلقات ذكر ، وبعضها حلقات للشباب يغنون « العراسة » ويرقصون وعشرات الشوادر والخيام وعشش البوص امتلأت بالحمص والحلوى والفول السودانى . . فى أقصى الزحام فى عمق الصحراء أقام الخدم – الرقيق السابق – خيامهم لبيع (البوظة والعرق) والخمور الرخيصة .

جاءت بتول تتعثر فى ثوبها الأحمر الجديد ، وشالها القطيفة الأصفر تغبر فوق رأسها ، والحذاء الجديد أوجع قدميها لضيقه .

كان الجو حارا ، والخيل المتسابقة تملأ الفضاء غباراً ، والشمس قاسية برغم فصل الشتاء . .

سار أمامها ببضع خطوات وسارت وراءه يشقان زحام الدروب الغاصة بالبشر من كل القرى والنجوع وبمختلف الأزياء . . طلبة المدارس الذين قدموا من القرى المجاورة ، يرتدون الجلاليب البيضاء ورءوسهم عارية ، والطالبات يرتدين الجلاليب الفضفاضة أيضاً ، والقادمون من غرب النهر لهم عمائم ضخمة ، والنوبيون بعمائم ملونة ، وبعض نساء النجوع الصحراوية لا تظهر غير أعينهن !

بضعة سياح ببنطلوناتهم القصيرة وآلات تصويرهم معلقة فى أعناقهم يحدقون فى هذه الجموع البدائية ، والجموع تشير إليهم وتقول : « انظروا إلى البلهاء ! »

بعد مسيرة نصف ساعة فى دروب « دراو » وصل معوض ببتول إلى درب طويل أوصلها إلى ساحة صغيرة تدور حولها بيوت سمراء قميئة تعطى الصحراء ظهرها ، استقبلتها فى الساحة امرأة زنجية مفرطة البدانة تملأ يديها بدوائر ذهبية . . وضعت يديها فوق كتفى معوض واحتضنته فى فرح وهى تهتف بصوت متهدج :

— أهلاً بالحبيب . . حمد الله على السلامة يا عمدة .

وربتت بكفها الكبيرة جبين بتول ، ثم قرصتها فى خدها بحنان قائلة :

— حلوة أنت مثل كعكة العيد يابنية ! على حين كانت بتول تفغر فاها وتنظر

إليها تارة وإلى معوض تارة دون فهم .

أشارت المرأة إلى أحد الأبواب وأومأت له بالدخول قائلة :

– البيت بيتك يا حبيب . . ادخل . . سأعود حالاً .

ودخل معوض ودخلت بتول تحدق فى البيت باستغراب !

فناء صغير تتوسطه نخلة يتكئ عليها زير ، وعلى الجانب الأيسر برش كبير على الأرض بين سريرين من الحبال ، وحجرتان صغيرتان مغلقتان ، وأرنب أبيض يشمشم فى الجدار .

سألها وهو يجلس بجوارها فوق سرير الحبال :

– هل يحس أحد بغيابك يا بتول ؟

– لا . . كل جماعة من جماعات البنات تظن أننى فى جماعة أخرى . . لكن من هذه المرأة ؟

– إنها « كهرمان » . . أمها كانت عندنا (زمان) ، وهى ما زالت تزورنا حتى الآن .

– وتأتى أنت لزيارتها ؟

كهرمان كأنها واحدة من عائلتنا . . أنا أزورها باستمرار . . كلما جئت « دراو » لسوق الثلاثاء أو لزيارة الشيخ عامر ، أقضى فترة الظهر عندها .

ثم صمت قليلا وقال بلهجة آسفة :

– قابلت (أبوك) يا بتول !

– خير يا معوض .

– قلت له : « احجز لى يا بتول يا عم محمد على » فد يده وقال لى : « هات المهر » !

– قلت لك : لا فائدة منه يا معوض !

وجاءت «كهرمان» بثوبها الأسود تجر كتل اللحم . . هللت لها بصوت رفيع كصوت الأطفال وسألته عن أهله :

– كيف حال سيدى عبد الغنى وسيدتى فاطمة يا حبيب ؟

شعر بفخر عظيم . . اهتزت عمامته الحريرية بشراشيبها الخضراء مع حركة رأسه . . رمق بتول ثم قال لكهرمان :

– فيك الخير . . (يسلموا عليك) ومشتاقين . . اذبحى لنا دجاجة وحمريها . . لكن حالاً حالاً .

– ذبحتها من الصباح يا حبيب . . كنت أعرف أنك قادم يا عمدة . . لكن من هذه البنية ؟

– بتول . . من قبيلة السوالم .

ضربت كهرمان صدرها وشهقت :

– قبيلة السوالم ؟ . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أدركنا بسرك يا شيخ عامر ! قبيلة كلها مجانين يقاتلون الناس بلا سبب وإن لم يجدوا من يقاتلونه ، قاتل بعضهم بعضاً . . حتى نساؤهم يشتمن الناس بلا سبب ! فى آخر زيارة لكم قابلنى شاب صغير السن منهم ، وأمسك بيدى يريد خلع ذهبى بالقوة . . صرخت وملأت الدنيا ، فتجمع الناس ، ودخل الشاب حقول الذرة . . ومع أنهم رأوه فإنهم أنكروا أنهم عرفوه . . خسارة البنية الحلوة يا معوض تكون من قبيلة السوالم !

وتجهمت بتول . . لكنها لما رأت (معوض) يغرق فى الضحك ، ضحكت فى سعادة ولاسيما عندما رأت «كهرمان» تغرق هى أيضاً فى ضحكة طفولية بريئة .

دخلت كهرمان فى ركن يفصله عن الفناء جدار قصير . . قام معوض ودخل وراءها . . كور فى قبضته ورقة مالية من فئة الجنيه ومدها لها ، فضربت صدرها قائلة :

– أنا ؟ . . فى يوم مولد الشيخ عامر ؟ . . أبداً يا حبيب . . أنا آخذ منك ومن أمك الكثير يا حبيب !

وحاول معها ، لكنها أصرت على الرفض ، فعاد ليجلس بجوار بتول ، وما لبثت كهرمان أن عادت تحمل طبقاً أبيض كبيراً به أجزاء دجاجة كاملة . . بما فى ذلك الرأس والجناحان والساقان بأصابعها . . وضعت الطبق على البرش وتربعت ، وهبط معوض وبتول ليأكلا . . وتناولت كهرمان رأس الدجاجة قائلة :

– ومقام الشيخ عامر . . لا أذوق من الدجاجة إلا رأسها . . الباقى من نصيبك ونصيب البنية يا حبيب . . ما اسمها قلت ؟

– بتول .

– أنت خطبتها يا عمدة ؟

رفع رأسه ينظر إلى بتول متفائلاً ثم قال لكهرمان :

– سأخطبها بعد المولد .

وقامت كهرمان وعادت تحمل إناء مستطيلاً من الصفيح امتلأ حتى حافته بخمر « العرق » . . مدته إليه فتردد قليلاً ، ثم تناوله ونظر إلى بتول نظرة غير مفهومة . . قد توحى بخوفه من أن تتهمه بنقص الرجولة إن لم يشرب ، وقد توحى بالخوف من اتهامه بشرب الخمر إن شرب ! ثم قربه من أنفه وشمشم فيه قليلاً ، ثم عب منه كأنه قرر الإقدام على الانتحار ، وناوله لكهرمان التى ناولته

بدورها لبتول . . لكن بتول ابتسمت وهزت رأسها معتذرة ، فعبت منه كهرمان ، ووضعته جانباً وهى تحمحم وقد احمرت عيناها .

أكلا وجلسا على سرير الحبال ، وجلست كهرمان على البرش عند أقدامها تعب من الإناء وتبتسم فى وجهيها فى ضراعة .

قامت بصعوبة وملأت الإناء من جديد . . وعند عودتها لمحت يد معوض تحيط بكتف بتول . . لكنها رأتهما يفزعان عند رؤيتها .

جلست كهرمان تشرب فى شراهة ، وتوجه إليهما نظرات مشحونة بحنان غريب .

مدت الإناء لمعوض فهز رأسه رافضاً فقالت ضارعة :

– وحياة الله يا حبيب .

شرب معوض حتى احمرت عيناه . . وأشارت كهرمان إلى باب حجرة قائلة :

– اجلسا فيها يا عمدة .

نظرا إليها فى دهشة ، فقالت متوسلة :

– اعمل (معروف) يا حبيب . . إن كان لى خاطر عندك يا عمدة . . هى خطيبتك وأنت خطيبها . .

ونهضت ، فقبلت رأسه ورأس بتول ، وأمسكت يده ، ووضعتها فى يد بتول ، ومدت له الإناء فعب منه بلا وعى ، ووقف ، فوقفت بتول ، فشدها وهو يخطو أمامها مترنحاً ، فتبعته كالمنومة .

أطلا فى مدخل الحجرة فرأياها معتمة . . لصق جدارها المقابل سرير من

الجريد ، فوقه حشية عارية ، وبضعة ثقوب تتسلل بالضوء من أركان السقف الطينى .

أغلقا الباب وراءهما وهما يلهثان . . ومدت بتول سبابتها محذرة :

– تقعدْ جنبى ساكتْ . . أو أصرخ واملأ الدنيا !

لم يرد . . كان رأسه يدور ويختلط عليه الحلم بالواقع ، وطعم « العرق » يتسرب مع أنفاس أنفه . . جلسا على السرير ، ومد يده وأحاط عنقها ، لكنها خلصت نفسها وابتعدت عنه قليلاً .

فى الخارج كانت كهرمان تزحف على أربع وعينها فى ثقب الباب . . رأت « معوض » يقترب من بتول فلمعت عيناها وتسارعت أنفاسها . . كان يقرب رأسه من وجهها ويقول كلمات غير مفهومة وبتول تميل برأسها نحوه فى بطء كالمخدرة . . مد يده واحتضن رأسها ومضى يقبلها فى خدها بسرعة وشوق ، فانهمرت الدموع من عينى كهرمان وماجت ملامحها بتعبيرات فرح بدائى تخالطها تعبيرات حزينة ! رأتهما يرقدان على السرير ويتداخل جلبابه الأبيض بثوبها الأحمر ، ثم رأته يقف فجأة مبهوتاً يحدق فى بقعة دم حمراء فى جلبابه ، وبتول نصف راقدة تحدق فى وجهه بشعرها المهوش فى فزع !

* * *

فى الجدار الخارجى الملاصق لمقام الشيخ عامر ، تجمعت نساء قبيلة « السوالم » بعباءاتهن السوداء الخشنة تخفى تحتها الثياب الجديدة الملونة ، يلهثن من العطش وقد تغير الجو فجأة وعصفت الريح الساخنة . . وسال العرق على وجوه البنات ، وجفت شفاههن ، وانطفأت من عيونهن نظرات الفرحة . . وبكى الأطفال وطالب الصبيان بالماء ، وولولت امرأة :

– أدركنا يا شيخ عامر من الهلاك . . كل بلدة دارت حول أزيارها . ومنعت الناس من الاقتراب منها .

كثيرون من أهل « دراو » يتطوعون لملء الأزيار الضخمة لرواد المولد . . كل قرية تعرف أزيارها وتشرب منها ، ويأتى الكثير من السقائين لملء ما يفرغ منها . . لكن العادة جرت أن يترك الكثير من الأزيار فارغة فى الشتاء . . اليوم انقلب الجو فجأة ولم يكن هذا فى الحسبان . . ريح « السموم » التى تأتى من الجنوب تلفح الوجوه بالرمال الساخنة وكأنها مرت على آلاف الأفران . . وصرخت امرأة فى صبى من « السوالم » قائلة :

– هات لنا الرجال . . يذهبون إلى الموالد والذكور يشربون هناك ، ونموت نحن هنا من العطش ؟

وهرول الكثيرون من الصبيان يبحثون عن رجالات السوالم فى الزحام . . وجاء بضعة رجال منهم ووقفوا يحدقون فى النساء ويدورون حول أنفسهم وصراخ الأطفال يصم الآذان . . وهاجت امرأة شابة ، ورفعت ابنها الطفل إلى أعلى ، وضربته بالأرض وهى تصرخ فى هستيرية :

– اسكت ! ليس عندى ماء ! اسكت ! ليس عندى ماء اسكت !

فأمسكت بها النسوة وخلصن الطفل من بين يديها . . وجاء رجال آخرون وداروا حول أنفسهم كسابقيهم . . ولوح أحدهم بيده النحيلة فى عصبية وصرخ :

– لماذا تأتى النساء إلى الموالد ؟ . . ما الذى نكسبه منهن غير العار بين البلاد ووجع الدماغ ؟ . . ثم ما الذى نفعله الآن بألف امرأة وألف بنت وألف طفل ؟ الله يلعن النساء فى كل كتاب ! . . المسافة بيننا وبين النيل ساعتان من الزمن

وهنا الناس لا أحد يسأل عن أحد . . والسقاءون عرفوا أن الجو شتاء فلم يأت منهم أحد . . لماذا تأتى النساء لولا أن الرجولة انتهت من الدنيا وأصبحت النسوان تحكم الرجال ؟

وولولت امرأة فى وجهه وساعدتها بضع نساء وتعالى الصراخ !

وسمع الرجال جلبة خلفهم فالتفتوا ليروا « شمروخ » بعمامته فوق رأسه كالمظلة التى عفرها الغبار !

صرخ فى الجميع بصوته الخشن يسأل عما حدث ، فصاحت به مغربية « بنت كذاب القبيلة » مستنجدة :

– الحقنا يا شيخ العرب شمروخ ! . الحقنا ياكبير يا بن الكبير يا زينة قبيلتنا ، لا غيب الله صوتك !

ارتفع فكه إلى أعلى ، واحمرت عيناه ، واكتست ملامحه القوية بتعبير من صمم على أمر . . رفع يده بأكمامها الثلاثة إلى أعلى وصاح :

– جوابى يصلك بعد خمس دقائق يا بنت أسياد الناس ! . . بحر النيل نفسه أنا أنقله هنا !

واستدار يخترق الزحام ، حتى وصل إلى ميدان سباق الخيل . . وصرخ فى شاب من أبناء قبيلته طالباً منه أن ينزل من فوق حصانه ، فهبط الشاب منزعجاً . . ووضع قدمه اليسرى فى « الركاب » وجلس على السرج فى ثقة . . وفى عصبية ساق الجواد وسط الزحام والناس من حوله يتفزعون ويحدقون فى عمامته باستغراب . . ولما ملك الفضاء انطلق بالجواد كالريح ، فى طريق يشق حقول القصب حتى وصل إلى عشش كثيرة من البوص حولها عشرات الجواميس بقرب النهر . . وخرج إليه رجال بثياب رثة ، يرفعون رءوسهم إلى

أعلى يحدقون فيه :

– أين كبيركم ؟ . . يقترب حالاً ويكلمنى لأن روحى فى مناخيرى !

رفع أحدهم يده إلى رأسه الذى يلفّه بخرقة قديمة وقال :

– أنا يا شيخ العرب . . طلباتك ؟

– جهِّز لى مائة قربة ماء . . أفتح عينى وأغمضها ، أجد القرب المائة أمامى !

– حاضر . . القربة تكلفك ثلاثة قروش . . لأن أسعار المولد غير أسعار الـ . .

صرخ فيه :

– أى مولد يا بنى آدم ؟ . . ألم تسمع عن شيخ العرب همروخ زعيم قبيلة السوالم ، أعظم قبيلة فى بر مصر؟ أنا أدفع أربعة قروش فى القربة ، لكن أغمض عينى وأفتحها ، أجد القرب المائة أمامى !

ودفع بكفه إلى فتحات الجلاليب الصوف الثلاثة يخرج حافظة نقوده ، وهرول السقاءون من حوله يجهزون القرب فوق حميرهم القوية .

ورأى أمامه خمسين حماراً فوق كل حمار قربتان . . فقال محتجا :

– ما هذا ؟ . . متى تصلون إذا كان الحمار الواحد يحمل قربتين؟

فتحوا أفواههم يحدقون فى هذا الرجل الغاضب بعمامته الضخمة ، والجواد يدور به حول نفسه ، ويصهل – هو الآخر – ويدق الأرض بحوافره ، وصرخ فيهم بلهجة آمرة :

– حلّوا جواميسكم وضعوا عليها بقية القرب . . ثم إن الخمسين حمارا لا تسترعى الأنظار كما يجب . . أنا أريد من الموكب أن يزلزل المولد كله عندما

يدخل ! . . أنا أدفع فى القربة الواحدة خمسة قروش !

ودفع بيده إلى فتحة جلاليبه الثلاثة وتحرك موكب ضخم طويل أوله حمير وآخره جاموس ، وهو يركض بجواده فى المقدمة والمؤخرة والوسط : .

– أنت أسرع . . وأنت أمسك القربة جيداً . . وأنت ، هل تريد مساعدة ؟ . . أسرعوا . . وليكن فى علمكم . . عند دخول المولد ، كل واحد منكم يخرج من فمه صوتاً « أر . .أر . .أر » لحماره كى ينهق الحمار . . سأعطيكم إشارة خاصة ، عندما أريد للحمير أن تنهق . . أريدها أن تنهق كلها دفعة واحدة وفى لحظة واحدة مفاجئة . . يجب أن يكون الموكب مثل يوم القيامة ! . . لابد أن يجعل أهالى القرى يتحدثون عنه سنة كاملة بعد عودتهم إلى قراهم (فاهمين) ! . . أنا أدفع فى القربة الواحدة ستة قروش !

وصمت المولد فجأة حينما فوجئ بخمسين حماراً تنهق كلها مرة واحدة ، يتقدمها رجل بعمامة ضخمة يختال بجواده فى مقدمتها ، يصدر الأوامر هنا وهناك !

وفغر طالب جامعى من بندر كوم امبو فاه وقال لزميله ذى السوالف الطويلة :

– تفرج على منظر أهالى النجوع البعيدة وقرى غرب النيل ! لو جاء بعض الصحفيين الأجانب هنا لفضحونا فى صحف أوربا ! . انظر إلى الرجل الذى يضع الكفن الأبيض على رأسه ، يصول بحصانه بين القرب والحمير والجاموس ، ويلوح بيديه ، كأنه الماريشال رومل يقود مدرعاته فى صحراء العلمين . . فضحونا الله يفضحهم !

وشربت نساء « السوالم » حتى ارتوين . . وزاد الماء ، فتوضأت العجائز

وأقبل الصلاة جالسات . . وبدأ الأطفال يلعبون . . وغسلت البنات وجوههن ، وعادت إليهن الابتسامات . . فقررن أن يذهبن إلى سباق الخيل يتفرجن على الفرسان بعمائمهم ذات الشراشيب الملونة .

* * *

٥

– أنا مسكين ! . من أين أملك المال لأتبرع ؟ . . أنا مسكين !

وقال له شيخ قبيلته :

– حرام عليك يا شيخ عبد الغنى . . المسجد بيت الله . . حتى بيت الله لا تريد أن تتبرع له ؟

هز كتفيه ثم حك عنقه المغبر وفأفأ :

– لكن ، لكن ، لكن ، ولماذا أتبرع له ؟ . . قصدى ، قصدى ، قصدى ، وما الذى يحتاج إليه الجامع ؟ . . أنا رأيته بحالة جيدة !

– سقفه قديم . . سنعيد سقفه ونرتفع بجدرانه قليلاً .

– وهل شكا لكم هو وقال لكم سقفى قديم ؟ . . هل قال جدرانى قصيرة ، ارفعوها لى ؟ . . لوكان السقف وقع ، كنت عذرتكم . . لكن السقف سليم والحمد لله ! فلماذا حكْحكَة الكلام وخلق النفقات وتبديد المال فى هذه الأيام السوداء ؟

كانا يجلسان على جسر قناة معشوشبة عليها صفان من شجر الحناء . . القناة تشق المزارع الخضراء ، ثم تدخل فى غابة صغيرة من النخيل ، وتخرج منها لتدخل تحت جدار جنينة يفوح منها عبير ورق المانجو . . ثمة نعجة تجتر راقدة بالقرب منهما وحملانها تتقافز حولها فى مرح .

ضرب شيخ الجوابر قفطانه الشاهى بكراسة صغيرة فى يده وقال :

– أنت عارف قبيلة السوالم تبرعت بكم ؟ . . قبيلة السوالم التى لا تملك خُمس أرضنا تدفع النصف وحدها قبالة البلد كلها ، وأنت زعيم الجوابر ترفض التبرع ؟

– وكيف أتبرع إذا كنت لا أملك المال الذى أتبرع به ؟ . . أسرق ؟ . . أنهب ؟ . . مالى أنا ومال قبيلة السوالم وقبيلة الكواسر ؟ . . ثم لماذا أتبرع فى شىء لا يخصنى ؟ . . هل رأيتنى أصلى فى حياتك ؟ . . هل دخلت جامعكم من قبل ؟ . . أنا أتبرع لكم وأنتم تصلون ؟ أما عجائب والله !

وكظم شيخ الجوابر غيظه . . تغلبت عليه دماثة قومه ، فقام صامتاً .

* * *

دخل معوض البيت فرأى أباه وأمه يجلسان على (برش) فى الشمس لصق الجدار . . الأب يصفر جزءاً من مقطف جديد ، والأم تطعم الكتاكيت . . أدار الأب رأسه وأعاده بسرعة ، وتوقفت الأم عن عملها وابتسمت له فى حنان :

– حمداً لله على سلامتك يا فارس . . قرأت لنا الفاتحة فى الشيخ عامر ؟

تلعثم الشاب . . عمامته معفرة وعيناه زائغتان . . أحست به الأم . . قامت ودخلت حجرة الموقد . . فوق العتبة أشارت إليه دون أن يحس زوجها . . ألقى معوض نظرة على أبيه وقال :

– سلام يا أبى .

لم يرفع الأب رأسه . . أصابعه الرفيعة كأصابع المومياء أسرعت فى عملها ، وتحركت شفتاه دون صوت .

فى حجرة الموقد وقف معوض قبالة أمه . . حدق فى وجهها قليلاً ثم جلس على ركبتيه . . نكس رأسه وانخرط فى بكاء مكتوم . . احتضنته المرأة فى فزع ،

وقالت له : أفرغ همك على صدرى ! تمتم وفأفأ وعينا المرأة الجميلتان تتسعان شيئاً فشيئاً . . أطلقته من بين يديها وضربت صدرها وقالت بصوت خافت فزع : « بيتى خرب » !

وقفت المرأة وتلفتت حولها ، ثم خرجت وجلست بجوار زوجها . . مضت برهة طويلة وهى صامتة ،على حين كانت أصابعه العظمية تعمل فى عصبية وقد ضيق عينيه يترقب أمراً خطيراً . . شهقات ابنه تصله من حجرة الموقد ، وغضبه يتجمع شيئاً فشيئاً . . لكنه ترك ما فى يده ، وارتعش عندما بدأت زوجته تروى له ما قاله ابنه . . تقهقر إلى الوراء ، وألصق ظهره بالجدار ، ودار يديه حول ركبتيه فأصبح كالكرة يطل منها رأسه الصغير المذعور . . وصمتت المرأة . . ومرت فترة قبل أن يتمالك نفسه وينفجر :

— حيلة . . حيلة عملتها بنت المقطوع فى ابنك الحمار . . لكن على مَن ؟ . . إن كانت هى زرقاء الناب فأنا أيضاً أزرق الناب ! ومادامت لم تجد من يربيها فعليها أن تتحمل نتيجة قلة أدبها !

— وابنك ؟

— ماله ؟

— وإذا قتله السوالم ؟

— مالى أنا ؟ . . هل قلت له يلبس قمصان الكشمير وشيشان الكريب ويدور مع بنات المقاطيع الخسرانات ؟

قامت المرأة فزعة . . تناولت عباءتها ، وخرجت حافية ، كما تقضى التقاليد على الأم الثكلى ، واتجهت إلى بيت أخيها تستنجده ، وصورة ابنها تتخايل أمامها مضرجة فى الدماء !

٦

وضجّ المجلس فى ديوان شيخ العرب شمروخ بالقهقهات . . العمدة والشيخ علام والمأذون وشيخ الكتاب وثلاثة من مدرسى المدرسة الابتدائية وبضعة شيوخ وشبان من القبيلة . .

ووقف الشيخ علام ، وتقدم من شمروخ وأمسك بعمامته وقبلها وهو يقول :

– بارك لله فيك يا عمود قبيلتنا . . سمعت كلامنا وأرحت قلوبنا !

ثم التفت إلى العمدة وقال له :

– شمروخ طول عمره قلبه أبيض . . إذا غضب فمثل بحر النيل يغرق العالى والواطئ ، وإذا هدأ فمثل نار القش ! . ما إن قلت له أمام مقام الشيخ عامر رضى الله عنه : « رد اليمين واصرف النظر عن موضوع ابن عبد الغنى الجوابرى حتى قال لى : حاضر يا شيخ علام » . . طول عمره قلبه أبيض بارك الله فيه .

ودارت أكواب الشاى على الجالسين ، وتحدث شمروخ باستفاضة عن مغامراته التجارية فى بلاد الله الواسعة . . يشترى البلح من أسوان ليبيعه فى القاهرة ، ويشترى الجمال من السودان ليبيعها فى سوق « دراو » وبين كل رحلتين يقضى شهرين فى نجعه الذى يعشقه ، لينفق كل ما معه باستثناء رأس المال .

وجاء ابن شمروخ الصغير بطاقيته الملونة وقميصه الأبيض الأنيق وهمس لأبيه :

– كلم أمى .

قام شمروخ ودخل البيت من باب الديوان المفضى إلى البيت . . ثلاثة بيوت مستقلة ، لكل بيت باب صغير يؤدى إلى ممر يفضى إلى باب الديوان . . دخل البيت الأوسط ليجد أمامه أم بتول تجلس مع زوجته الوسطى المحببة ، والمرأتان تحدقان فيه بذهول . . أومأت له زوجته أن يجلس ، فجلس على سرير من الحبال ، وجلست زوجته بين يديه فوق برش مفروش .

أم بتول جلست بعيداً على الأرض ، وظهرها للجدار ، وبين يديها قشة تحطمها فى عصبية ورأسها منكس .

مضت زوجته تتحدث إليه بصوت خافت ، ورأسه بعمامته الضخمة ، يميل على صدره شيئاً فشيئاً وهو يتساءل بعد كل جملة : « هه ؟ . . هه ؟ » بطريقة عصبية كأنه لا يسمع جيداً ، وزوجته تتلعثم وتعيد عليه كل جملة من جديد .

التفت إلى أم بتول فى حدة . ثم إلى زوجته ثم إلى أم بتول مرة أخرى وقال لها :

– ضحك عليها !

رفعت أم بتول رأسها وقالت ضارعة :

– أنا جئتك لأنى أعرفك . . لا تفضحنا الله لا يفضحك .

ثم أمسكت بطرف عباءتها ومسحت دموعها ، وعادت تنكس رأسها وتحطم قشة جديدة .

ووقف . . سار بضع خطوات إلى الأمام واستدار يحدق فى المرأتين صامتاً . . يدخل يديه فى جيوبه ويخرجها ، ويضغط عمامته إلى أسفل ، وينظر إلى السماء تارة ، وإلى طرف حذائه تارة .

فجأة جلس على الأرض وتمدد على جنبه وأسند رأسه على كفه وكوعه

مغروس فى التراب .

لمح ابنته فى نهاية البيت تنظف زجاجة الفانوس الكبير استعداداً لإنارة الديوان ، والسماء امتلأت بطيور « أبو قردان » عائدة إلى أعشاشها .

هب فجأة واقفاً ، وجلبابه الأزرق الخارجى تحول نصفه الأيسر إلى لون ترابى ، وقال لأم بتول بصوت كالفحيح :

– أبوك وأبو بنتك ياكلبة يا بنت الكلب !

قالت له زوجته فى عتاب رقيق :

– شمروخ . . المرأة اختارتك أنت من بين كل رجال القبيلة .

التفت إلى زوجته فى حدة وقال لها بصوت خافت :

– أبوك أنت أيضاً ياكلبة يا بنت الكلب !

ارتفع صوت زوجته قليلاً فى عتابها :

– شمروخ . . أين عقل شيخ العرب زعيم جماعته ؟

رفعت أم بتول رأسها وقالت فى رجاء وبصوت موزون كأنها تلقى بيتاً من الشعر :

رجال الشدايد . . يارب خلِّيهم .

ثم أردفت :

– الذين يسترون على مكسورات الجناح هم : « رجال الغندرة الزينة » وليس (رجال فِتُوالنا وزيدونا) !

نفض جلبابه ، ودخل إحدى الحجرات بلا سبب ، ثم خرج ونظر إلى المرأة ، ثم إلى زوجته ، ثم إلى المرأة من جديد وسألها :

– من عرف ؟

– الله وأنت وزوجتك .

التفت إلى زوجته قائلاً فى حدة :

– أضربك بالرصاص لو قلت لأمك !

رفعت زوجته نظرها إليه فى عتاب فاستطرد :

– أنا عارف أمك ! . . هى أيضاً أضربها بالرصاص لو عرفت !

لوحت له زوجته بيدها غاضبة ، وأدارت رأسها بعيداً فى احتجاج صامت ، فقال للمرأة :

– اذهبى إلى بيتك يا امرأة (واكفى على الخبر ماجور) ، والمكتوب على الجبين تراه العيون !

* * *

قهقه المجلس بصوت عال وشمروخ يتقدم منه . . وقال العمدة لأحد المدرسين وهو يشير إليه :

– بالله عليك تعيد الحكاية لشيخ العرب يا أستاذ .

وعدل المدرس من وضع جاكتته فوق جلبابه ذى الياقة القاهرية وقال باسماً :

– مرضت حفيدة الشيخ علام فأرسل فى طلب الطبيب . . وكان الطبيب قاهريًّا طبيا لم يكمل أسبوع واحد منذ وصوله بلدنا . . كشف على الفتاة وأعطاها حقنة ، وأوصى بالدواء وطمأنهم وذهب . . وما إن خطا بضع خطوات حتى أغمى على الفتاة ، فهرول بعضهم وأعادوا الطبيب . . وكان الشيخ علام ساعتها يلطم خديه ! وجاءت على الصياح مغربية بنت كذاب القبيلة وسألت الشيخ (علام) عن الخبر ، فأشار إلى الطبيب وقال فى انفعال :

- الطين . . تطينت . . أرسلنا للمطين . . جاء وطينها . . لكنها تطينت . . فجرينا وراء المطين . . وها هو ذا جاء ليطينها !

وكان الطبيب يفغر فاه ويحدق فى وجه الشيخ علام دون أن يفهم شيئاً . . فقط هو « يحس » أن الكلام عليه !

وقهقه العمدة والمدرسون وشاركهم الشيخ علام بضحكته مثل كأكأة الدجاجة . . لكن العمدة قطع ضحكته فجأة حين وقع بصره على وجه شمروخ المكفهر وعينيه الحمراوين :

– مالك يا شمروخ ؟

صمت المجلس ، وتطلعت الأعين فى دهشة إلى وجه شمروخ واكتست الوجوه بالتجهم . . رفع شمروخ يده بأكمامها الثلاثة وصرخ :

– طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاثة . . إذا لم يأت عبد الغنى الجوابرى بنفسه يخطب بتول بنت محمد على السوالمى لابنه – أخرب البلد علينا وعليهم !

صرخ فيه الشيخ علام :

– ماذا حدث باسم الله ؟ . . من يكون ابن الحرام الذى لعب بعقلك وجعلك تغير رأيك ؟

– طلاق ثلاثة من نسوانى الثلاث . . إذا لم يصلنى رد من قبيلة الجوابر قبل ثلاثة أيام – أجعل النجوع كلها تبكى على الموتى !

كان لهاثه المسموح كصوت اللبن فى المخض . . وقام الشيخ علام واحتضنه ، لكنه دفعه بعيداً عنه وصرخ فى بضعة شبان فى المجلس :

– نبابيتكم ! . . جهزوا نبابيتكم وهاتوا الحراب !

والتفت إلى ابنه قائلاً :

– قل لأمك تجهز لى مخلاة الرصاص ، وتنفض التراب عن البندقية !

وضاعفت الشمس الغاربة من طول ظلال الشبان يهرولون فى مرح هنا وهناك فى النجع . . يتنادون ويبشرون بعضهم بعضاً بيوم رائع تفرقع فيه النبابيت ، وتتحطم الرءوس وتظهر شجاعة الشجعان ، وتزول الرتابة المملة . . أكثرهم ممن لم يكملوا المرحلة الابتدائية ، وقراريط آبائهم لا تأخذ غير القليل من وقتهم ، والمصانع على الشاطئ الآخر تطلب حملة الشهادات ، وأهل الخبرة الصناعية . .

وقال العمدة بلهجة هادئة :

– أنت كنت معنا فى أمان الله ، ورددنا لك اليمين . . قل لنا عن الذى جعلك تغير رأيك ، لكن على شرط . . بدون غضب !

– الجوابر يقولون ، قبيلتنا مشكوك فى نسبها ، ويمنعون أولادهم من الزواج من بناتنا ، وأنتم جميعاً تحولتم إلى مداهنين !

غضب العمدة . . وقف وضرب صدره قائلاً :

– أريد أن أعرف . . هل أنا الحكومة هنا أو أنت ؟

ضرب شمروخ صدره :

– أنا !

قال العمدة بصوت عال :

– أنا أقدر أكتب ورقة صغيرة لحضرة جناب المأمور أقول فيها : إنك تسبب الفتنة فى البلد وأضعك فى السجن !

رد شمروخ مزمجراً :

– أنت عمدة لأن ثلاثة من قبيلتنا كتبوا أرضهم باسمك كى تصبح عمدة !

أما أنا فإنى عمدة بالذراع !

– أنت كذاب فى كل ما قلته عن حكاية منع أولادهم من الزواج من بناتنا ولابد أن فى رأسك أشياء أخرى لا نعرفها . . لكن والله والله والله . . إذا لم تقصر الشر أضعك فى السجن ؟

صرخ الغلام الأبنوسى ابن الرابعة عشرة الذى أعطاه شمروخ عمامته فى العمدة :

– وأين البلد الذى يستطيع حمايتك منا إذا أرسلته للسجن يا عمدة ؟ . . لوكنت عمدة بحق وحقيق ، أرسله للسجن ثم تفرج على ما سيحدث لك !

والتفت العمدة إلى الغلام الذى كان يحمل نبوتا أطول منه وقال له وهو يهز رأسه فى أسف :

– أنا أستحق كل ما يجرى لى ؛ لأننى وافقت أكون عمدة عليكم أنتم يا همج البلاد !

ثم اندفع إلى الخارج ، وتبعه المدرسون ومعهم أكثر شيوخ القبيلة .

وجلس الشيخ علام قبالة شمروخ ، وقال له فى هدوء باسم :

– قل بسم الله الرحمن الرحيم يا عمود قبيلتنا الله يبارك فيك وفى ذريتك . . كل شىء بالهدوء يمكن أن . . . .

قاطعه شمروخ بلهجة غاضبة :

– لا أريد أن أسمع . .

وقف الشيخ علام بسرعة وخطا إلى الخارج وهو يقول فى انفعال :

– أنا محقوق ؛ لأنى أكلمك أنت يا مجنون ، يا مر اللسان ، يا بن زينب المطينة !

٧

تجمع شيوخ الجوابر – باستثناء والد معوض – فى ديوان شيخهم ، يتشاورون إلى منتصف الليل . . واتفقوا على أن تهديدات « شمروخ » لا تعنيهم فى شىء ؛ لأن الزواج بالرغبة وليس بالقوة . . وقال شيخهم ضاحكاً فى مرارة :

– هذه أول مرة نسمع فيها عن حكاية مثل هذه يا عرب . . أهل (العروسة) هم الذين يصممون على تزويج ابنتهم بالقوة من ناس لا يريدونهم . . عجائب !

وضحك المجلس . . وقال شيخ آخر له لحية صغيرة :

– إذا كان ابن عبد الغنى له رغبة فى الزواج من البنت ، فليسافر إلى القاهرة ويعمل هناك ، ثم يعود بعد بضع سنوات ويتزوجها ، مادام أبوه لا يوافق .

وفضوا مجلسهم بعد أن أوصوا أولادهم أن يأخذوا حذرهم ، ولا يذهبوا إلى الحقول إلا فى جماعات تحمل النبابيت والحراب !

ورفض خال معوض أن يتدخل فى الأمر . . قال لأخته فى إعياء :

– أنا من قبيلة صغيرة تعيش بين الغولين الكبيرين – الجوابر والسوالم – بالصبر وطول الصمت . . أسأل الله تعالى أن يعمى بصرهم عنا لنقضى أيامنا فى هذه الدنيا مستورين .

ولما قالت له أخته إنها تخاف على ابنها طمأنها . . قال لها : إن السوالم لم

يعرفوا تفاصيل ما حدث بين البنت والولد . . فلو عرفوا لقتلوها أولاً ، قبل أن تمتد أيديهم إليه . . وحذرها من الخوض فى هذا الأمر مع أحد لكيلا يتسرب الخبر إلى السوالم ويتعرض ابنها للخطر .

وسهرت الأم الليالى قلقة . . لكن ، لما مر أسبوع دون أن يحدث شىء بدأت تطمئن .

* * *

دفع معوض باب بيتهم ودخل . . وجد فى انتظاره ابن خالته « سلامة » ابن الشيخ علام . . تعانقا فى حرارة ، وجلسا يشربان الشاى . . فرح معوض بابن خالته . . زيارته تدل على مدى صداقته وإخلاصه . . زيارة لها معناها وقيمتها لأنها محفوفة بالمخاطر . . صاحبها خائن فى نظر قبيلته ؛ لأنه يتصل « بالأعداء » فى أيام « التعبئة العامة » . . الويل له لو انكشف أمره . . حتى لو كان أبوه وغالبية قبيلته ضد هذا التوتر ، إلا أن هذا شىء ، ومثل هذه الزيارة شىء آخر . . أقل ما يصاب به (سلامة) من هذه الزيارة وصمة تجعله فى نظر قبيلته أحط من الجاسوس فى نظر مواطنيه .

ضاحك معوض ضيفه وهش له . . وابتسم كل ما فى المرأة لابن اختها بما فى ذلك عيناها الجميلتان . . وقال سلامة لمعوض :

– احترس لنفسك . . شمروخ يحرض الشباب ويقلب النجع . . أنا لا أفهم لتصميمه هذا معنى . . كنت أفهم أن تصمم أنت على الزواج . . أما هو . .

قاطعه معوض :

– أنا أقول لك عن الحقيقة يابن الخالة . . أنت مأمون على السر و . . .

قاطعته أمه وهى ترسل إليه نظرة محذرة :

– معوض . . اسكت .

رد معوض فى صوت متهدج :

– سلامة أخى وصديقى قبل أن يكون ابن خالتى . . أقول له عن الحقيقة وأستشيره فيما أفعل .

وروى له ما حدث فى يوم المولد وهو يقسم له أن الأمر حدث دون أن يصدق حتى هذه اللحظة أنه حدث . . وتجهم وجه سلامة قبل أن يكمل الآخر حديثه . . قذف بكوب الشاى من يده إلى مسافة بعيدة ، وأطبق بيديه على عنق معوض . . أوقعه على ظهره وجثم فوقه وغرس أسنانه فى عنقه !

ولولت المرأة بصوت خافت جدًّا ، وجثمت فوق ظهر ابن اختها ، وغرست أسنانها فى عنقه من الخلف . . صرخ سلامة ، وهب واقفاً ، فهجمت عليه المرأة ودارت بيديها على ساقيه من الخلف واستماتت .

قام معوض ، فطلبت منه أمه أن يساعدها فى إجلاس سلامة ، وجلس الأخير وهو يحدق فيهما بكراهية ويلهث .

وركعت المرأة أمام ابن اختها تتضرع :

– أمك أنا يا سلامة . . اكتم الخبر ، الله يخليك ويبارك فى شبابك . . معوض الحيلة والسوالم يقتلوه ، وأقعد أنا حزينة طول العمر . . أمك أنا يا سلامة . . أرضعتك مع معوض من « شطرى » وشطر الأم (غالى) . . اكتم الخبر ربنا يبارك فيك ويحبيك للحكام والعربان .

كان الشاب يلهث دون أن ينطق . . يقلب عينيه فى الأم مرة وفى الابن مرة ويبلع لعابه فى عسر والأم ماضية فى تضرعها .

٨

بتول تحولت إلى (إنسانة) بلهاء . . مخلوق ذاهل تقاطيع وجهه تدل على أنه لا يعى شيئاً . . إذا وقع بصرك على الوجه بشفتيه المنفرجتين قليلاً ، وعينيه الواسعتين تدوران بلا معنى – تملكتك رغبة فى البكاء .

ثلاثة أيام قضتها لا تخرج من البيت . . تجلس فى حجرة داخلية ووجهها للجدار . . لا طعام ولا شراب خلال الأيام الثلاثة . . أمها تجلس بالقرب منها تبكى فى صمت ولا تشرب غير الماء . . بين لحظة وأخرى تتمتم الأم بكلمات شبه موزونة مثل : « قَسَّموا النوايب . . شِلْت لى نايب » . . مرات ترفع رأسها إلى أعلى وتقول : « هو قادر » . . أحيانا تحاور نفسها قائلة : « قال الغلب : آجى ؟ . . قلت له : آه ! » . . أطفالها الخمسة ينظرون إليها فى دهشة شديدة ، وهى تنظر إليهم باسترابة . . لم تخرج إلى إطعامهم إلا بعد أن رأت أن صراخهم سيعرضها للفضيحة . . تجلس بجوار بتول طوال النهار . . تعاملها بحنان غريب !

فى صباح اليوم الرابع أمالتها على صدرها ، وفتحت فمها بالقوة ، وسكبت فيه كوباً من الشاى باللبن ، وأخرجتها إلى فناء البيت . . لا تفارقها أبداً . . عند النوم ترقدها فى حضنها . . تغلق عليها باب الحجرة الداخلية ، وتسنده بنبوت زوجها الذى لا يأتى . . تستيقظ عند أقل حركة وتدور بذراعها على ابنتها . . أحياناً تجلس بجوارها على السرير ، فى منتصف الليل ، وتعدد على موتاها

بصوت خافت وتبكى . . فى النهار تحدق فى جدران الفناء ، كأنها تتوقع أن يعتليها أحد فجأة . . فكرت أن تذهب إلى زوجها وتخبره بما حدث ، لكنها خافت على ابنتها .

تسامعت الجارات (بمرض) بتول وجئن للزيارة . . فوجئن بهذا المخلوق الذاهل الذابل لا يتحرك ولا يتكلم ويحدق فى الفضاء بلا معنى . . قالت إحداهن : لابد أنها أصيبت بضربة شمس عندما تعرضت للعطش فى مولد الشيخ عامر ، واقترحت أن تغلى لها بعض الأعشاب مثل (حلف البر) . . وافقتها أم بتول لكيلا تشك فى سبب مرضها . . قالت جارة أخرى : لابد أن شيطانا عشقها و « تلبس » جسدها ، واقترحت أن تحضر أحد المشايخ ليتلو عليها القرآن ، فوافقتها والدة بتول أيضا . . لكنها ، بعد انصراف الجارات ، تعود إلى الجلوس بجوار ابنتها ، والبكاء على موتاها ، والتحديق فى أعلى الجدران !

* * *

٩

أدخل (معوض) يده فى فجوة بسور الجنينة وأخرج خرقة قديمة . . فتحها وأضاف إليها بضع ورقات مالية . . فرش الخرقة أمامه على الأرض ، وانهمك يحصى ما فيها . . قال لنفسه : لم يبق من المهر غير عشرين جنيهاً . . القمر ينير الجنينة حوله ، وظلال أشجار المانجو والنخل تملأ المكان خطوطاً سوداء . . فجأة أحس بحركة ، فرفع رأسه ينظر إلى أعلى السور . . قبل أن يتنبه جيداً ، فوجئ بجسم يسقط بجانبه . . عمامة ضخمة تلتصق بوجهه ، يطل منها وجه شمروخ الغاضب . . انعقد لسانه وظن نفسه يحلم . . وجهه المستطيل تجمد أمام الوجه العابس ، كالفرخ الصغير أمام الثعبان الهائل . . أحس بحركة وراءه فالتفت فى فزع ، رأى بضعة شبان يتقدمون منه . . أيديهم ممدودة وجذوعهم تميل إلى الأمام . . أيد كثيرة أطبقت عليه ، وفتحت فمه بالقوة وأدخلت به طاقية مكورة . . أحضر أحدهم نبابيت كثيرة وفرشها على الأرض كالحصيرة ، وأرقدوا (معوض) فوقها . . ألصقوا نبابيت أخرى بجنبه وفوق صدره ، وداروا عليه وعليها بالحبال !

أحضر أحدهم جوالاً طويلاً مؤلفاً من ثلاثة أجولة مخيطة بعضها فى بعض وتعاونوا حتى أدخلوه فيه . . أحدثوا فتحة صغيرة فى أعلى الجوال قبالة أنفه . . حملوه فيما بينهم ، والتفوا بسوالمى يدخل بحماره من باب الجنينة . . وضعوه

فوق الحمار فى وضع أفقى وركب أحدهم وراءه . . بدا منظر الجوال كالتابوت الفرعونى .

انطلق به راكب الحمار وسار الباقون يحرسونه على البعد .

* * *

اخترق راكب الحمار حيشان النخل ، وجسور الحقول ، خوفاً من ضوء القمر ، وحذراً من نجع الجوابر الذى فى الطريق . . بعد أن قطع شوطاً ، اعترض طريقه شاب من أصدقائه « الجوابر » . . قال له مهللاً :

– أنت تحمل (قصبْ) طبعاً . . أعطنى مما سرقت يا حرامى .

وتلعثم راكب الحمار . . واعترف له أنه سرق القصب فعلاً ، ووعده أن يحضر له نصيبه بعد عودته إلى البيت . . لكن الشاب أصر على أن يأخذ نصيبه الآن ، واقترب ووضع يده على الجوال ، فاصطدمت كفه بالنبابيت وصرخ فى نشوة :

– الله الله ! قصب جيد من نوع « القزاز » . . نزِّل حملك وأعطنى نصيبى !

قبل أن يكمل جملته فوجئ بيد تمسكه من الخلف . . عندما حاول تخليص عنقه ، رأى وجه شمروخ الغاضب يصرخ فيه :

– أنت وهو سرقتما حمارى يا لصوص ! . . أمامى إلى العمدة !

– أنا قابلته هنا والله يا عم شمروخ . . والله لم أر حمارك ولا أعرف أنه سرقه . . الحرامى هو لا أنا .

– أنت لص وهو لص . . أنت سر أمامى بحمارك ، وأنت تعال معى بصفتك شريكه .

ويبدو أن « شمروخ » نسى نفسه ، واندمج فى دوره . . فقد صمم على أن يصحب الشاب إلى العمدة برغم تضرعه إليه . . لم يفق إلى نفسه إلا بعد أن تلفت حوله فلم يجد راكب الحمار ، بل وجد أحد شبان قبيلته يقترب منه ويهمس له :

– نسيت نفسك ؟

فترك الشاب فجأة ، وركض هذا الأخير بأقصى سرعته وهو لا يصدق أنه نجا .

* * *

دخل الحمار بحمله فى بيت مهجور فى أقصى نجع السوالم . . حلوا وثاق معوض فى حجرة بلا سقف وأوقفوه أمام جدار . . قال له شمروخ قبل أن يخرجوا الطاقية من فمه :

– لو تفوهت بكلمة . . أقطم رقبتك .

لم يستطع معوض أن يقف . . ترك نفسه فسقط جالساً . . قال له شمروخ وهو يجلس قبالته !

– سأقيم لك عرساً كبيراً جداً وأدخلك على بتول ! موافق ؟

لم يرد . . يبدو أنه لم يكن يتوقع هذه النتيجة ففغر فاه دون فهم . . صرخ فيه وهو يلكمه :

– موافق يا بن الثعلب ؟

– أنا والله يا عم شمروخ .

كان يتكلم بصعوبة . . كأنه قضى بضعة أشهر مريضاً . . لهجته تدل على أنه لم يفهم ما عرض عليه ، وبدأ يدافع عن نفسه .

– الحكاية أننا ذهبنا نزور «كهرمان» . ثم جاءت لى بالعرق . . وبعد ذلك . . .

لكنه قائلاً :

– اخرس !

ثم التفت إلى الشبان ، وكلف كلاً منهم إحضارَ شىء ، فخرجوا جميعاً وهم ينظرون بعضهم إلى بعض فى شك . . انتظر حتى ابتعدوا وقال لمعوض بصوت كالفحيح :

– كهرمان مَنْ يا بن الثعلب ؟ . . الموضوع الذى تعرفه ، سر بينى وبينك ! لو أخبرت به أى إنسان سأقطع رقبتك ! فاهم يابن الثعلب !

– فاهم يا عم شمروخ .

– سأقيم لك عرساً تتحدث عنه البلاد الأربعة التى تجاورنا . . أنت تريد بتول . . أليس كذلك ؟

– أريدها يا عم شمروخ .

– سأقول للناس : إنك هربت من أبيك . ودفعت لى المهر . فاهم ؟

– أنا كنت أجهز المهر . . لكنى كنت أخافكم !

ودخل أحد الشبان ، فأشار شمروخ لمعوض أن يصمت . . ثم أشار للشاب أن يساعده ، فى إيقاف معوض وإصلاح ثيابه وعمامته . . لكن الشاب وقف ينظر إليهما دون أن يتكلم . . ودخل بقية الشبان وهم يعقدون ما بين حواجبهم . . وقال أحدهم :

– أنت اتفقت معنا أن نقتله يا عم شمروخ . . أليس كذلك ؟

– ولماذا نقتله يا بن أخى ما دام الرجل يحبنا ويريد أن يناسبنا ؟ . . ثم

ما الذى فعله فى دنياه هذا المسكين حتى نقتله ؟

– لكنك قلت لنا : سنقتل (معوض) ، فذهبنا معك وأحضرناه . !

وقضى شمروخ وقتاً طويلاً فى إقناع الشبان بأن كل ما يهمه من الأمر هو خوفه من طلاق زوجاته بعد أن حلف أن يزوجه بتول ! فاقتنعوا إلا أحدهم أصر على قتله وخرج مغضباً . . وخرج شمروخ وراءه بسرعة ، وأعلن للنجع أن « معوض » جاء بنفسه لخطبة بتول ودفع له المهر !

* * *

١٠

– ومن يكون شمروخ ؟ . . من يكون ابن زينب العرجاء تدور بطبقها على البيوت تشحذ اللقم ، حتى يتحكم فى بنتى ويزوجها دون أن يستشيرنى ؟

وخرج النجع برجاله ونسائه يتفرج على محمد على السوالمى عارى الرأس ، بقميص يصل إلى ركبتيه وسروال أبيض ، يمسك بنبوت طويل ، ويتحزم بعمامته ، دلالة على أنه سيقاتل حتى الموت !

كان ضئيلاً نحيلاً أحمر شعر الرأس والشارب . . يبدو من لونه أنه كان أشقر ، فلفحته شمس أسوان وحولته إلى اللون البرونزى . . لم يكن له أهل فى القبيلة حتى الدرجة الخامسة . . يملك قارباً صغيراً لصيد الأسماك يجوب به نهر المنطقة .

– هل أنا مت . مدفون فى الجبانة ؟ . . بنتى أنا تتزوج مِنْ غير ما أعرف ! . . وافرضوا أننى هجرت نجعكم . . نجع اللصوص والشحاذين وقليلى الأدب ! هل معنى هذا أن أسمع كغيرى أن دخلة بنتى بعد يومين ؟ . . هل حدث مثل هذا فى كل بلاد المسلمين يا عرب ؟ . . واحد يسمع من الناس أن بنته ستتزوج ولا يعرف حتى اسم العريس ؟ . . فى أى زمن نحن ؟

وحرضه أكثر الواقفين . . ولاسيما الكبار فى السن وعلى رأسهم العمدة والشيخ علام . والذين رأوا فى وجوده ذريعة للتدخل :

– آخر زمن يا محمد يا على ! نحن كنا ستتدخل طبعاً ، لكننا انتظرناك . .

ماذا تقول القبائل والقرى حولنا إذا عرفوا أننا نزوج بناتنا غصباً عن عرسانهن ؟ . . لكن الحمد لله أنك وصلت وفى استطاعتك إيقاف هذه المسخرة !

وسار الموكب وراءه حتى وقف أمام بيته الذى تفصله ساحة واسعة عن مقدمة ديوان شمروخ . . ووقفت أم بتول فوق عتبة بابها . . على رأسها طرحة سوداء وعيناها زائغتان . قالت لزوجها :

– امش من هنا يا شغل النسوان يا مخرف . . أنت لا ترحم ولا تترك رحمة ربنا تنزل !

– رحمة ربنا يا ناقصة يا بنت الناقصة ؟ . . أنت أيضاً موافقة على زواج بنتك من واحد أحضروه فى شوال !

– هو جاءنا برجليه . . أراد أن يتحسَّب فينا ويتنسَّب فقبلناه

– يتنسب يا بنت صانعة الأفران ؟ على الطلاق منك أنت ، ومن زوجتى الأخرى التى ظفرها أحسن منك ، أن عريس بنتك جاءوا به داخل شوال !

– لكنه سيناسبنا وقبلناه !

– ومن الذى يقبله بمنقارك هذا الذى يشبه منقار شيخ الغفر . . أنا الرجل أو أنت ؟ . . أنا سأقيم هنا ابتداء من اليوم . . وأى رجل يجد فى نفسه الشجاعة لأخذ بنتى بالقوة فليأت !

وجلس على الأرض أمام عتبة بيته ، ونبوته فى حجره ، ويداه حول ساقيه الرفيعتين كعودى البوص اليابس !

وجلس بجواره العمدة والشيخ علام وعدد كبير من شيوخ القبيلة وخرجت صوانى الشاى من البيوت القريبة تدور عليهم ، والابتسامات الشامتة فى

« شمروخ » على كل الوجوه . . والشيخ علام يصفق بيديه ويطلق ضحكته ككأكأة الدجاجة ويقول فى تعد :

– نشوف من يقدر « يطيّنها » على الثانى !

* * *

١١

اجتمعت قبيلة « الجوابر » فى منظرتها الكبيرة الأنيقة ، وتشاوروا فيما بينهم فيما يجب عمله .. وقال شيخهم :

– أنا لا أصدق حكاية الخطف . . لماذا يخطفونه ؟

– أنت عارف أن « شمروخ » حلف بالطلاق أن يزوجه البنت .

–لا . .لا . . اصرف نظر عن طلاقات شمروخ . هذا رجل يسكر ويقول أى كلام ، وينسى ما قاله بعد ساعة مثل بقية قبيلته ! الولد هرب وذهب إليهم كل البلد تعرف أنه يريد البنت والبنت تريده . . المسألة الآن هى ما موقفنا إذا تم الزواج ؟ . . هل نذهب إلى العرس على أساس أن العريس ابننا ، أو نقاطعه لأن الولد ذهب إليهم دون استشارتنا ؟

– نقاطع العرس .

– هذا رأيى أيضاً . . يجب أن نشعر الولد أنه بدوننا لا يساوى شيئاً . . يجب أن يحس بالفارق بين أعراسنا نحن وبين أعراس السوالم التى تشبه أعراس الشحاذين !

– ومن قال لك : إن العرس سيتم يا حضرة الشيخ ؟ . . ألم تسمع عن أبى البنت الذى جاء وأقام فى بيته القديم ؟

– سواء تم العرس أو لم يتم فإن هذا لا يعنينا فى شىء . . ليكن هذا قرارنا الأخير .

ودخل عليهم غلام يقول لهم : إن عبد الغنى الجوابرى رفض أن يحضر معه كما طلبوا منه أن يفعل . . قال له : إن كان الاجتماع من أجل ابنه فإن هذا لا يعنيه فى شىء ، وإذا كانوا يريدون منه أن يتبرع بشىء خاص للمنظرة فإنه غير مستعد لذلك ، لأنه لا يدخلها عادة ، ولايريد منهم – بعد أن يموت – أن يجلسوا فيها ليتقبلوا فيه العزاء !

* * *

١٢

انعقد المجلس فى ديوان شيخ العرب شمروخ . . لم يزد أفراده هذه المرة عن بضعة شبان وثلاثة شيوخ من أهله الأقربين . . القبيلة كلها انضمت إلى العمدة والشيخ علام وقاطعته . . لكنه مضى فى إجراءات العرس وكأن شيئاً لم يحدث . . أحضر بضع كراسات وقسّم أوراقها إلى مربعات صغيرة ، وطلب من الشبان أن يكتبوا رسائل إلى كل أهل البلد كى يحضروا ليلة دخلة « ابنه » معوض على بنت أخيه « بتول » . . ولما قال له أحد الشيوخ – إن أهل البلد سيضحكون منه إذا قرءوا أن معوض «ابنه» فى أوراق «الدعوة» ، ضرب حاجز السرير بكفه وصرخ :

– أنا حر أكتب ما أشاء وأشطب عمن أشاء . . كل من لى « نقوط » عنده يحضره لى فى عرس « ابنى » . . أنا أريد أن أغيظ « الجوابر » وأبرهن لهم على أن عرس قبيلتنا لا يقل فى « فخامته » عن أعراسهم بما فى ذلك المبالغ التى يجمعها فى « النقوط » . . وأى واحد فيكم سيفتح فمه سأضربه بالرصاص !

كان الشبان يكتبون ، و « معوض » يجلس بجوار شمروخ – كابنه البكر كما أطلق عليه النجع فى تهكم – يتلفت حوله ولا يصدق ما يحدث أمامه .

وقال أحد الشيوخ بعد تردد :

– والبنت ؟

– مالها ؟

– أبوها هنا .

– عارف !

– العريس تحت يدك ، هذا مفهوم . لكن كيف ستحصل على العروس ؟!

لم يرد شمروخ . . طلب من الشبان الذين يكتبون « الدعوات » أن يضيفوا « ملحوظة » يقولون فيها : « كل واحد يحضر ومعه نقوطى الذى عنده ! »

ثم التفت إلى الشيخ الذى كان يحادثه وقال له موضحاً :

– هذه الملحوظة مهمة . ربما ظن الناس أننى أريد أن أحتفظ « بنقوطى » لزواج ابنى الحقيق ، ودفعوا مبالغ بسيطة . أنا أريد أن يكون عرس « معوض » من الأعراس التى تزلزل الدنيا ، وتتحدث عنها البلاد الأربعة المجاورة !

تردد الشيخ قبل أن يقول بلطف :

– شمروخ يا بن عمى ، قبيلة الجوابر كلها لن تحضر العرس . . قبيلة أخوال معوض ، لن تحضر العرس . . أغلب القبائل الصغيرة والعائلات المتفرقة ستجامل الجوابر وتقاطع العرس . . قبيلتك نفسها تقاطعك حتى أهلك الأقربون سيجامل أكثرهم العمدة والشيخ « علام » ولن يحضروا العرس . . ثم أين هى العروس التى تجهز هذا كله من أجلها ؟ ! اصرف نظراً عن الموضوع كله إن كان لى خاطر عندك يابن عمى بدل الفضائح !

ضرب شمروخ حاجز السرير وصرخ :

– العرس سيكون من الأعراس التى لم يسمع بها أحد . ولابد أن أغيظكم أنتم أيضاً يا « زبالة » العرب يا غنم !

والتفت الشيخ إلى شيخ آخر يحاوره ، وتبادلا نظرة تدل على أنه يشك فى عقل شمروخ !

١٣

كان محمد على السوالمى – والد بتول – يقضى حاجته فى الخلاء عندما فوجئ بكف غليظة تمتد من خلفه لتغلق فمه . . تبين فى الظلام ملامح شمروخ الغاضبة تنظر إليه فى قسوة ، ويد تطبق على فمه ، ويد أخرى تدور حول فخذيه ، وهو مكور فى صدر الرجل ، يسير به فى الظلام كأنه طفل فى حضن أمه ، وأصوات الضفادع والجنادب تدل على أنه يتوغل به فى الحقول .

فوجئ بنفسه يُسحق على الأرض فى قسوة ، وتنهال عليه اللكمات ، ويوثق بعمامته ، ويربط فمه بجزء فصل عنها ، ثم فتح عينيه بصعوبة شديدة ، بعد وقت لا يدريه ، ليجد نفسه فى إحدى حجرات بيت شمروخ الداخلية وفوقه تقف زوجته الوسطى ، وفى يدها مصباح غازى ، وصوت شمروخ يهدر لها :

– طلاق ثلاثة . . لو عرف أحد – أضربك بالرصاص !

• • •

نجع السوالم أكبر نجوع البلد ، وأكثرها عدداً ، وأعمقها فقراً . . لغة أهله قريبة من الفصحى ، تتخللها كلمات كثيرة انحدرت من الهيروغليفية . . العادات غريبة كأن أهلها يقيمون فى جزيرة العرب ، لولا أنها امتزجت بعادات لن تجد لها أصلاً ما لم تعرف الكثير عن حضارة وادى النيل القديمة .

ترعة عميقة تشق النجع وتتفرع فى ثلثه الأخير إلى فرعين صغيرين . . كأنما

النجع صورة مصغرة من « مصر » وهذه الترعة هى نهر النيل بدلتاه . . لكن الترعة لا ماء فيها . . فبعد أن حُفرت فى الثلث الأول من هذا القرن قام وفد من أعيان « الجوابر » وسافر إلى القاهرة وعاد بعد قليل ليعلن أن الحكومة « اكتشفت » أن مكان الترعة الحالى غير مناسب لرى البلد ، ولذا قررت حفر ترعة جديدة تبدأ من مزارع الجوابر ، ثم تطوف فى بقية مزارع النجوع .

كانت النتيجة أن هجر الكثير من السوالم آبارهم القديمة اعتماداً على الترعة الجديدة فى البداية ، ثم خجلوا من استخدام « السواقى » بعد أن رأوا الجوابر يهجرونها من ناحية .

ماء الترعة الجديدة — التى تبدأ من مزارع الجوابر — لا يصل إلى السوالم إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه ! . ماء قليل متخلف عما استغنت عنه بقية النجوع ، ويرفض أن يصعد إلى أرضهم العالية .

آبار السوالم كثيرة وكانت غزيرة الماء قبل أن يطمرها التراب . . بيوتهم القديمة كانت عالية ولها هيبة قبل أن تحل محلها هذه البيوت القميئة . . درجات السلالم هى التى تدل على العز القديم . . أكثر هذه البيوت القميئة أمام كل منها بضع درجات مستطيلة غاية فى الجمال . . لو أنك انحنيت أمام إحدى هذه الدرجات وأزلت عنها الطين العالق بها لوجدتها من صخور أسوان العتيقة المنحوتة بفن ، ولابتسمت فى وجهك الخطوط الهيروغليفية لتقول لك : هأنذا ! ولو غامرت واقتحمت نبات الحلفاء الغزير المتجهم وأبعدت عن وجهك هيش العنكبوت ، واقتربت من بئر مطمورة — لراعك جمالها الهندسى ، وأقواسها الصخرية الرائعة التى ازدانت بالنقوش الفرعونية البديعة .

مصيبة السوالم أنهم متكبرون ولا يعترفون بأنهم نجع كسول . . يتغنون بالعز القديم دون أن يصنعوا مجداً جديداً ! حتى نخلهم كله نخل عجوز مما زرعه لهم الأجداد . كلما وقعت نخلة ، تركت مكانها شاغراً وإن قامت نخلة جديدة فالمصادفة البحتة هي التي أنبتتها !

ربما الشيء الوحيد الباقي ، والذي يحفظ لهم شيئاً - من الهيبة هو كثرة عددهم ، ومقدرتهم على القتال في عالم لا يؤمن أن هناك شيئاً اسمه « الحق » ما لم تصاحبه قوة تدمير !

كانوا في ذاك اليوم يتثاءبون ، وهم يتجمعون في ساعات الأصيل وسط الساحات وأمام الدواوين عندما دوت الطبول وزمرت المزامير وانطلقت الأخبار في النجع :

- شمروخ أحضر « الغوازي » من مدينة « أسنا » نساء عاريات وجميلات ، يتراقصن أمام الزمر ، ويلعبن بحواجبهن للرجال ! الحقوا تفرجوا على البدع الجديدة !

وتحول نجع السوالم إلى زحام يفوق زحام مولد الشيخ عامر . . حتى قبيلة الجوابر جاءت برجالها ونسائها وأطفالها تتفرج على مدى « الكفر » الذي تردى فيه شمروخ !

. . شبان القرى المجاورة ، سرقوا حاصلات آبائهم وجاءوا يتزاحمون . . أيهم يدفع مبلغاً أكبر للراقصات ليحظى بأكبر قسط من الاهتمام ، وشمروخ يصول ويجول ، يأمر هذا ، ويشخط في ذاك ، ومعوض يجلس على أريكة أنيقة بملابس العرس ، وبجواره المأذون الذي انتهى من كتابة العقد ، وأمه نفسها حضرت مع الجوابر وكادت تركع لشمروخ الذي وصفته بأنه « ولي من

أولياء الله الصالحين» .. على حين كان البعض يتندرون على محمد على السوالمى – الرجل الجبان – الذى وافق على العرس ، بعد أن حصل على عشرة جنيهات من شمروخ وذهب إلى نجع زوجته الجديدة !

ورفعت إحدى الراقصات ساقها إلى أعلى ، وتأوهت فى « الميكروفون » بحيث سمعتها البلاد الأربعة المجاورة . . فقال الشيخ علام على العمدة الذى كان يجلس بجواره فى مقدمة الصفوف وقال له فى هيام :

– انظر إلى الطين يا عمدة . . لو وافقت هذه المرأة – التى تشبه فرس شيخ الجوابر – أن تطيّن منى – كتبت باسمها طينى كله ، وأنزل لها عن مشيخة البلد !

وتأسف الناس كثيراً عندما حانت لحظة « زفة » العريس . . لأن هذا يعنى نهاية هذه الليلة الأسطورية التى لن يجود الزمان بمثلها !

• • •

١٤

دخل شمروخ بيته آخر الليل ، مرتاح البال . . أخيراً ستر الله « بتول » ذات الوجه المبارك ، وستر قبيلة السوالم العظيمة دون أن تعرف هى نفسها ما فعله من أجل سمعتها . . مازالت أصوات المزامير تطن فى أذنيه ، وما زالت أصوات الزغاريد تشيع فى روحه . . اللهم لك الحمد يا ربنا يا خالقنا يا ستار على عبادك ياكريم . . هيا سافر إلى القاهرة أو إلى أم درمان ، بعد أن تكلفت الكثير فى هذه الزيارة ، وربك معك يعوضك عما فقدته . . والعرس كان لا مثيل له ولك الشكر يا ربنا ياكريم . . كل البلاد المجاورة ستتحدث عن عرس السوالم – سيدة القبائل – وعن شيخ العرب شمروخ زعيم قبيلة السوالم التى ليست فى بر مصر كله قبيلة مثلها .

ودخل حجرته الداخلية يحل وثاق محمد على السوالمى ، وكانت زوجته الوسطى تقف بجواره ، وفى يدها مصباح غازى .

لكن الرجل لم يتحرك بعد أن فكوا وثاقه . . أيقظه شمروخ فلم يستيقظ ، هزه ، فلم يرد ، ووضع يده على صدره فلم يسمع لقلبه نبضاً !

رفع رأسه إلى زوجته وقال لها وهو يلهث :

– الرجل مات يا بنت العم !

– مات ؟

– مات يا بنت العم !

* * *

كان يسير بين رجال الشرطة رافع الرأس . . جموع غفيرة من النجع تسير وراءه ، والنساء يبكين ، ومغربية بنت كذاب القبيلة تولول وراءه :

– لا غيب الله صوتك يا عمود قبيلتنا !

كان يقول لنفسه لم أفعل إلا الخير . . لن يتخلى الرحمن عنى ؛ لأنى لم أفعل إلا الخير . . وحينما صعدوا به الجسر الذى يفصل نجعه عن المزارع التفت وراءه . . ألقى نظرة أخيرة على نجع السوالم الذى أحبه أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ، واستأنف سيره مرفوع الرأس .

ابتسَامَة غيْر مفهُومة ..

١

ضجيج ميدان رمسيس يصلك فى الطابق العاشر ! شىء غريب أن تصر على النزول فى هذا الفندق . ربما يعطيك إحساساً بالقرب منها . . الإسكندرية الجميلة . . مرتع الصبا والشباب . . تنظر إلى البحر فلا شىء يحد بصرك ! كأنك تعانق الطبيعة . . شعر سعاد يتطاير فى الهواء ، وحين يريد لنفسه الاستقرار يلتف حول عنقك . . غريب أنت هنا . . الناس يتدافعون حولك بالمناكب ، وإحساسك بالوحدة يزداد . . من الذى يطرق الباب الآن ؟ . . لعله عامل الفندق خفيف الدم ، جاء بطريقة جديدة مبتكرة لانتزاع البقشيش !

– أهلاً عباس !

حقيبته الجلدية المتفخة فى يده ، وقميصه الأزرق يضيق بجسده المدملج . . تعانقنا برغم مضى ساعة على فراقنا . . خطا إلى الداخل وغاص فى المقعد المريح . . قال متهكماً :

– شاورت نفسك يا عم ؟

لهجته القاهرية تشوبها لكنة من ريف الدلتا . . قلت :

– أنا مرتاح هنا .

رفع ذراعه الممتلئة وواصل تهكمه :

– طبعاً . . رجل غنى . . عشرون جنيهاً فى الشهر للنوم وحده !

– لو كان البيت بيتك لذهبت معك ، لكن قريبك هذا لا أعرفه . . ربما

كنا مختلفى المزاج .

مضى فى العدّ على أصابع يديه :

– أولاً هو سمع عنك وأحبك جدًّا . . ثانياً هو إنسان ابن حلال وستحبه جدًّا . . ثالثاً أنا شخصياً أحببتك بمجرد أن أشاروا إليك وقالوا : موظف جديد منقول من الإسكندرية . . رابعاً أنا لا أقول لإنسان أنا أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلا . . خامساً ستكون لك حجرتك الخاصة ، وتستطيع الانعزال فيها إذا شئت . . هات سيجارة !

اضطررت إلى فتح النافذة ، وإزاحة ستارة الشرفة الصغيرة مفضلاً دخول الشمس الحارة على الاختناق فى سحب الدخان .

أظهر الضوء وجهه المتورد وقميصه نصف الكم وحذاءه المترب :

– هيا بنا يا أستاذ .

– قلت لك مرتاح هنا .

ضرب مسند المقعد ووقف :

– لن أنتقل من مكانى إلا ورجلى على رجلك . . اجمع ملابسك من غير معارضة . . وعلى فكرة . . أنا عازمك على الغذاء !

* * *

دفع بمفتاح الشقة فى الباب وهو يثرثر :

– حدائق القبة من أجمل مناطق مصر . . وحجرتك بالذات تطل على حديقة صغيرة فى غاية الروعة .

فتح الباب على صالة واسعة عارية . . ليس بها من الأثاث غير مائدة أنيقة

لامعة الزرقة ، بجوارها مقعد خشبى وحيد ، أنحنى عليه الدهر ، بدا بجانبها كالشحاذ .

فى الجدار الأيمن إطار فاخر يضم صورة كبيرة لشاب فى الثلاثين ، يرتدى حلة أنيقة . . شاربه الصغير يعلوه أنف وسيم تنحدر من أعلاه نظرة متعالية . . خصلة شعر تتهدل على جبهته تشبه منقار الببغاء ، فى منتصف صدره كرافتة عريضة أعتقد أنها فى الأصل حمراء .

– مدحت .

أشار عباس إلى الصورة بذقنه ، بعد أن أمال مؤخرة رأسه إلى الوراء ، ورفع بصره يتأملها فى إعجاب كأنه لم يرها إلا الآن .

وضع الحقيبة وورقة اللحم وكيس العنب على المائدة ، وقادنى إلى الحجرة المواجهة للصالة حتى وقفنا على بابها :

– ما رأيك ؟ . . واسعة ، وسقفها عال ، ولونها فى بياض اللبن .

أعتقد أن فمى كان مفتوحاً على اتساعه لحظتها ، وأن لسانى كان يتمايل فى فراغه كرقبة الدجاجة حين تستريب !

حجرة واسعة عالية السقف ، تضم من « الأثاث » بضع دوائر كبيرة من خيوط العنكبوت ومجموعة من الصحف المكورة مصفرة اللون ، وهلاهيل زرقاء ، وسوداء ومغبرة ، وعلب ورنيش فارغة ، وإناء كبيرا به فحم محترق ، ومائدة ، وجوزة بلورية بها ماء أصفر ، وبضعة أحجار بعضها محطم الحواف ، وكومة من الأخشاب كانت فى الأصل مقاعد .

استدرت على الفور ونظرت إلى حقائبى . . من غير المعقول أن أجىء للسكنى مع إنسان لم أعرفه إلا بضعة أيام ، ثم أتوقع راحة البال !

انتبه عباس إلى استدارتى المفاجئة ، فقال بصوت ودود :

– اطمئن . . عندى سريران فى غرفتى . . أنت ضيفى إلى أن تجهز نفسك . . تعال أفرجك عليها .

أول ما وقع عليه بصرى فى حجرته ، امرأة بملابس النوم ترقد على سريره . . تقترب من الأربعين ، مستديرة الوجه ، مهوشة الشعر ، أنفها أكبر قليلا مما يجب .

رمقتنى بنظرة فاترة ، ثم تمطت جيدا وتثاءبت .

تراجعت إلى الوراء ، واندفع عباس إليها مهللاً .

– أهلا حورية . . كيف حالك يا حورية ؟ . سلامات يا شيخة !

انسحبت إلى الصالة وجلست على المقعد . صوت عباس العريض يصلنى واضحا ، ولا يصلنى منها غير همهمات :

– بسيطة ياحورية . . ولا يهمك . . والله العظيم ؟ . . قولى الحقيقة . ها ها ها ! . . عارفة يا حورية . . أنت أظرف واحدة عرفتها . . صدقينى . . أنا لا أقول لإنسان أنا أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلا . . لا لا لا . . . لا تشغلى بالك . . بسيطة قلت لك . . أستأذنك دقيقة واحدة .

وسمعت خطواته فى الطرقة الطويلة التى تصل حجرته بالصالة . . وطالعنى بجسده المدملج يتقدمه بطنه المرح . . اتكأ بمرفقه على المائدة ، ومال بجذعه وهمس قرب أذنى :

– لك غرض ؟

– لا .

– السبب ؟

– فى حالة حب .

– حب ؟ . .قلت حب ؟ . . سعادتك من عشاق السينما المصرية ؟

– جالها متوسط . . ثم إنى مسافر إلى الإسكندرية بعد يومين .

– طيب هات جنيها !

ذهب إليها بالجنيه ، وعاد ليدخل المطبخ . . خرج منه يحمل إناء كبيراً ممتلئا إلى نصفه بالماء ، وسكيناً . . وضعها على المائدة ، وانهمك فى إزالة الأختام الحمراء من اللحم ، وهو يقول فى غيظ :

– مدحت عجيب فى تصرفاته . . قال لها : سأعود بعد نصف ساعة ولم يعد ! دائماً يوقعنى فى مشاكل فارغة . . سأترك له الشقة فى أقرب وقت !

حدقت فى وجهه مندهشاً . . الرجل الذى أغرانى بالسكنى معه يفكر فى الرحيل !

دون أن يتنبه إلى دهشتى عادت إليه لهجته الطفلية البريئة :

– حورية تستحق معاملة بهذا الشكل ؟ . . حورية ؟ . . بيضاء القلب !

رمى السكين على اللحم ، وذهب إليها ، فجاءنى صوته مجلجلا :

– أقول يا حورية . . ما رأيك فى أنى عازمك على الغداء ؟ . . السبب ؟ . . لا . . لا . . لن أقبل أى عذر . . إحنا إخوة يا حورية .

عند عودته مر على المطبخ ، وخرج منه بطبق أبيض آخر أفرغ فيه العنب وهو يهمس لى :

– حورية صممت على المشى . . أنا لم ألح . . بصراحة ليس لى غرض .

وبدت المرأة جميلة عندما ارتدت ثيابها وتزينت . . حيتنا فى ود واتجهت نحو الباب . . قبل أن تصله صاح فيها بلهجة معاتبة :

– نسيت حاجة يا حورية ؟

عادت إليه من جديد وأعطته جبينها . . أدار عنقه وطبع عليه قبلة طويلة لها صوت مقزز !

كانت يده اليمنى لحظتها تمسك بالسكين ، وأصابع يده اليسرى تقبض على قطعة لحم كبيرة كالمخلب .

بعد انصرافها قال لى مفاخراً :

– أنا قاطعت الأفلام المصرية من عشر سنوات !

ثم ابتسم فى سعادة وهو يغمز بعينه الكبيرة الجاحظة كعين الضفدعة !

* * *

٢

سرير وصوان صغير وثلاثة مقاعد ومنضدة اشتريتها على عجل ، وجهزت حجرتى . . هذا أسهل من الذهاب إلى الإسكندرية ، وإحضار أثاث من هناك ، وإضاعة الوقت – المخصص لصحبة سعاد – فى تعقيدات النقل وربكته .

جاء مدحت ورحب بى فى شهامة ، وساعدنى فى فرش الحجرة ، وبذل عباس جهداً مشكوراً ، وفى التاسعة مساء ، من يومى الأول كانت حجرتى مستعدة لاستقبالى .

أحب الجو الأسرى حقًّا ، لكننى لا أحب أن أشارك أحداً أو يشاركنى أحد فى حجرتى .

فى العاشرة تماما دق جرس الباب . . كنا نجلس فى حجرة عباس وأمامنا أكواب الشاى ، عندما دق جرس الباب . . قال مدحت مبتسما :

– الإخوان وصلوا . . افتح يا عبس .

بدا عباس فى حجم مضاعف داخل منامته ذات الخطوط الحمراء وهو يقف . . اكتسى وجهه الأحمر الممتلئ بسعادة غامرة وهو يتجه ناحية الباب .

أصوات كثيرة ملأت الصالة فجأة . . أصوات غريبة خشنة لأناس لا يعرف من يسمعهم : هل كانوا يتناقشون أو يقتتلون ؟ . . اقتربت أصواتهم عندما دخلوا فى بداية الطرقة . . لم أسمع أحدهم يسلم على عباس أو يكلمه . .

كانوا منهمكين فى مناقشة حامية فى الطريق ، وهم يكملونها الآن على اعتبار أن الشقة امتداد للطريق .

أربعة أشخاص وقفوا فى مدخل الحجرة . . شبان فى الثلاثين من عمرهم يرتدون قصانا مشجرة أنيقة وبنطلونات ملونة . . طول أحدهم مترع للنظر ، ولأحدهم قامة قصيرة وكرش كبيرة ، صمتوا فجأة عندما وقع بصرهم على ، ثم هجموا يصافحوننى فى حرارة وعباس يقدمنى لهم فى تفخيم مبالغ فيه . . ذهب مدحت إلى حجرته وعاد يحمل منامتين ، وفتح عباس صوان ملابسه وأخرج منامتين . خلع الأربعة ملابسهم وارتدوا المنامات ، واتجهوا إلى الشرفة الملحقة بحجرة عباس ، وتربعوا على « الشلت » التى فوق سجادة داكنة :

جاء عباس بجوزة وطبق كبير غاص بالفحم المحترق ، وطبق آخر به مجموعة من الأحجار الفخارية وبواكى المعسل . . وانهمك أحدهم – وكان نحيفا بارز العظام يعبئ الأحجار بالمعسل .

وقال لى أطولهم بصوت أجش وبلهجة سوقية :

– الشقة حصل لها الشرف بوجودك يا حسن بك .

قال ذلك وهو مشغول بفتح ورقة سلوفان .

وأشار القصير البدين إلى صدرى وقال بدون اهتمام :

– الصلاح ظاهر على وجهه .

فقاطعه عباس بقوله :

– أنا أحببته منذ أول لحظة رأيته فيها . . بمجرد أن قال : إنه منقول من الإسكندرية أحببته . . وأنتم تعرفون طبعا أننى لا أقول لأحد – إننى أحبك إلا إذا كنت أحبه فعلا .

وسرت همهمات فهمت منها أن السعادة قد أطبقت على أنفاسهم جميعاً لرؤيتى ، فشعرت بحزن قاتل !

ودارت الجوزة ، وعلت القهقهات الخشنة على النكات الفجة . . وقال لى عباس وهو ينفخ فى كفيه كأنه يدفئهما :

– المعيشة هنا ميسرة ومبهجة . عندنا شغالة تجهز لنا الطعام وتغسل الثياب ، ولكنها فى إجازة الآن ، وعندنا أصحاب نحبهم ويحبوننا ، وعندنا أعمالنا ، وكلنا نتمتع بصحة جيدة ، والحب متوافر ، وستكون فى غاية السعادة يا حسن .

وهززت رأسى أوافقه ، وأنا أفكر فى أحسن طريقة لبيع الأثاث والعودة إلى الفندق !

* * *

٣

ظهرت حقول الموز تلوح بأذرعها ، والقطار يهدئ ، من سرعته ، يدخل فى محطة سيدى جابر . . كدت أجهش للميدان المألوف حين لمحته ، وتخيلته يرحب حين رآنى . . وقفت أكثر من عشر دقائق أتأمل العمارة المواجهة ذات القباب كالمباخر المقلوبة ، وطالبات الثانوية العامة يرتدين الزى العسكرى وينظمن المرور .

– شقة مفروشة يابك ؟

– متشكر .

هل أذهب إلى بيتنا أولا أو أذهب إلى بيت سعاد ؟ . . المسافة واحدة ولا تزيد عن عشر دقائق سيراً على الأقدام ، والأفضل أن أذهب إلى البيت وأغير ملابسى أولا .

بلا شعور منى وجدتنى أجتاز ميدان كليوباترا الحمامات وأهبط المنحدر من شارع « بوباستس » . . هذا الهواء ذو النكهة الخاصة أنا أعرفه . . وهذه الوجوه فى الشوارع أعرفها بالنظر ولى فى كل ناصية ذكرى . .

وقفت أمام باب سعاد وطرقته فى لهفة ، ففتحت لى أمها . . ضحكت حتى اهتز عودها الفارع ، والتفت حولنا بناتها الثلاث الصغيرات يهللن ! . بحثت عن سعاد بعينى فلم أرها . . حين سألت أمها عنها لم ترد . . قادتنى من يدى إلى حجرة النوم وبناتها يتقافزن وراءنا . . فوق السرير العريض ذى الورود البرونزية

فى مسنده رأيت كومة كبيرة من الملابس الجديدة المستوردة . (بلوفرات وفساتين ، وسترات ملونة ، وقصان نوم ، ومجموعة من الساعات الثمينة) . وقالت لى وعيناها تزغردان : إنها هدايا وصلتهم توًّا من « حاتم » ابن خال سعاد الذى عاد أخيرا من ليبيا .

لم أكن أعرف من قبل أن صلة القرابة بين حاتم وسعاد قد اقتربت حتى وصلت إلى ابن الخال مباشرة . . وأحسست أننى مقبل على عهد جديد لم أستعد له ، وأن الطريق غاص بالمفاجآت .

عدنا إلى الصالة وسألتها عن سعاد ، فقالت : إنها ذهبت ، هى وأخت حاتم إلى كازينو « الشاطبى » ومعهما . . حاتم !

حين رأتنى أنظر إليها باستغراب – جلست بجوارى على الأريكة وقالت بنبرة اعتذار :

– والدة حاتم وأخته وأخوه هناك . . واتفقنا أن نلحق بهم بعد قليل . لم أرد ! شربت عصير المانجو الذى قدم لى بسرعة وخرجت .

* * *

قالت لى أمى – وأنفاسها تتهدج – إن عينها كانت ترف منذ خمس دقائق ، وقامت من فورها لتصعد إلى سطح البيت . ومن وقفتى فى الشرفة سمعت كأكأة الدجاج ، فعرفت أنها تقوم بحركة اعتقالات فى عشة الفراخ . . لكننى لم أنتظر هبوطها . . غيرت ملابسى بسرعة ، وركبت عربة أجرة إلى كازينو الشاطبى .

مائدة تطل على البحر جلس إليها كل من سعاد وحاتم متواجهين أخت حاتم وشاب آخر لا أعرفه جلسا إلى مائدة مجاورة . . عانقنى

حاتم بحرارة ، واقترح أن نجلس – نحن الخمسة – إلى مائدة أكبر فى الداخل . . بدا حاتم فى صحة جيدة ، لولا كرش صغيرة بدت مصممة على فرض نفسها عليه حلة حريرية زرقاء وعلى سعاد رداء أبيض فاخر لم أره عليها من قبل ، خمنت أنه ضمن الهدايا ، ولاحظت قشوراً على ذراعها العارية من أثر نزول البحر .

مضى حاتم يروى لنا مشاهداته فى ليبيا . . دهشت حين رأيته يستبدل بلهجته القديمة ، لهجة جديدة تصدر من حلقه . . إشارات جديدة اكتسبها أيضاً ، منها وضع يده فى جيب سترته وهو جالس . . فلان قال لى : يا باشمهندس ! وفلان قال لى : « طول عمرك عبقرى يا حاتم بك ! » . . شغلتنى حركاته الجديدة عن متابعة ما يقول . . الشاب الآخر يصغى باهتمام ، ويوجه إليه الكثير من الأسئلة ، فاتجه إليه حاتم بكله . . انتهزت الفرصة ، وكتبت على هامش صحيفة كانت على المائدة : « قومى بنا » وقربتها من سعاد . . أشارت بطرف خفى تطلب القلم . . تظاهرت أنها ترسم طيوراً على الهامش ، وكتبت لى : « أنا مرتبطة بالضيوف بتكليف رسمى من ماما . . اليوم لهم ولنا غد . . أحبك » .

صخبت أمواج البحر فى أذنى فقمت .

° ° °

فى التاسعة صباحا كنت أهبط منحدر شارع بوباستس . . صعدت إلى الطابق الثالث وضغطت الجرس . . فتحت لى سعاد وهى تدور حول نفسها وتضحك . . تشمر عن ذراعيها وعلى صدرها مريلة من المشمع الشفاف وعلى أمها مثلها . . عرفت أنهم يستعدون لإقامة وليمة لأسرة حاتم . . مائدة الطعام

البنية ، فى وسط الصالة ، عليها أربع فازات غاصة بالورد . . ثلاث (لوحات) جديدة على الجدران ، تضمها إطارات فاخرة ، تمثل غابات وأنهارا تنتمى إلى مرحلة ما قبل الرسم !

جلست إلى أريكة فى الصالة ، وسعاد تعدنى بالذهاب معا إلى السينما مساء اليوم . . المشابك السوداء ، كالمواسير ، تموج فوق شعرها فاحم السواد ، والسعادة واضحة فى عينيها . . لاحظت أن الطرقة التى تصل الصالة بالمطبخ جاءتها ستارة مخملية بنية .

عادت أخوات سعاد الثلاث من الخارج يحملن حقائب شبكية غاصة بالخضراوات والفاكهة . . هللن لى وأحدثن ضجة صغيرة . . وشهقت الأم عندما تذكرت شيئًا مهمًّا ، ودخلت حجرتها وعادت بجهاز تسجيل . . فتحته أمامى ، فتدفقت منه أغنية بدوية تصاحبها طبول عنيفة . . وزادت ضجة أخوات سعاد بشعورهن المشوشة وثيابهن الجديدة فوق الركبة . . واعتذرت لى سعاد فى رقة ؛ لأنها ستنشغل عنى فى المطبخ . . دقت الطبول فى رأسى بعنف ، والستارة المخملية تهتز بعد أن توارت خلفها . .

* * *

٤

أكياس صفراء فارغة تتناثر على أرضية الصالة ، وطبق الفحم المحترق يتربع فوق المقعد .

انقبض صدرى فى الحال ، أمى تعشق النظافة إلى حد المرض . . ورقة صغيرة ملقاة على الأرض تقدم من أجلها ، أنا وإخوتى ، إلى المحاكمة !

الحجرات الثلاث مفتوحة على مصاريعها كالعادة ، ومستطيل من الشمس يعبر نافذة حجرتى ليقتحم الصالة . . الجوزة غارقة وسط كومة من قشر البطيخ وطرف غابتها متجه إلى أعلى كالمدفع المضاد للطائرات !

تحت الدش البارد قررت أن أكتب لسعاد رسالة قصيرة أطلب منها أن تحدد موقفها . . يجب أن تكون لهجة الرسالة معتدلة ، والشرفة الملحقة بحجرة عباس خير مكان لكتابتها .

زجاجة زيب صغيرة فارغة على « الكومودينو » الملاصق لسرير عباس . . فوق السرير كراسة صغيرة على غلافها نجمات ثلاث بالحبر الأزرق . . فتحت الكراسة كيفما اتفق وعرفت خط عباس الأنيق :

« لا نعمات ولاسميرة ولا اعتدال ولا رتيبة ولا سائر الأخوات العزيزات يشفين غليلى يا أمينة ، لكنك لاترحمين . . الوصول إلى قلبك أصعب من عبور شلالات نياجرا فوق سلك رفيع . . مصيبتى أننى تعلقت بك إلى حد الجنون . . برغم القسوة وبرغم الصدود ، أتعلق بك ولا أدرى ما المصير ؟ » .

أغلقت الكراسة ، وذهبت من فورى ، فأغلقت باب الشقة بالترباس ، وعدت إلى حجرتى ، والكراسة فى يدى . . زيادة فى الحيطة ، أغلقت باب حجرتى ، وتمددت على السرير ، عازما أن أقرأ الكراسة من أولها إلى آخرها . . حقا أن نصائح المرحوم أبى تحرم الكشف عن أسرار الناس ، لكن الاختلاف بين الأجيال من الأمور المشروعة ! .

الزميل عباس من أصحاب الصولات فى دنيا النساء . . ذكر اسم أكثر من عشرين امرأة فى كراسته ! بعضهن ذكر الأوصاف التى تعجبه فيهن بالتحديد . . كلها أوصاف حسية ومتناقضة . . حتى فى نظرته الحسية لايشترط مواصفات معينة . . كلهن ممتازات والمهم هو النوع ! لاحظت أن « سميرة » شغلت وحدها ربع الكراسة الأول . . اعتدال ورتيبة وعدد آخر شغلن الربع الثانى . . لكن « أمينة » استعصت عليه حتى شغلت النصف الأخير كله . . لياليه الطويلة . . قسوة قلبها . . عيناها الكهربيتان . . خوفه من الجنون ! ولم أجد فى الكراسة أى شىء عن أسرته أو عن علاقاته بزملاء العمل . . وبدا لى الأمر فى النهاية فى غاية التفاهة . . أعدت الكراسة إلى مكانها ونسيت الأمر تماماً .

تذكرت سعاد فانتابنى الضيق . . ثلاثة أيام قضيتها بالإسكندرية وهى مشغولة بحاتم وأسرة حاتم ! أمه وأخته وصديق أخته – أو ربما خطيبها – لايفارقوننا . . ندخل السينما وهم معنا ! نذهب إلى مكان عام وهم حولنا ! المرة الوحيدة التى اقتربت منها إلى حد ما كانت فى سينما « لاجيتيه » . . احتضنت كفها بكفى وهى تجلس بينى وبين حاتم . . أغاظنى منها متابعتها للفيلم الذى لم أفهم منه شيئاً . . سأقول لها فى الرسالة : إما أنا وإما حاتم ! الأمور

يجب أن تكون واضحة ليعرف كلانا طريقه . . لابأس من أن تكون اللهجة شديدة .

فى أول سطر كتبت كلمة « سعاد » . . شطبتها بعد قليل وكتبت . « أختى العزيزة سعاد » . . فكرت قليلا ، ثم شطبت السطر وكتبت « سعاد » . . أخيرا قررت أن أؤجل الكتابة إلى الليل . . فكرت للحظة أن أذهب إلى مقهى لكننى عدلت . . تناولت رواية قديمة ومضيت أقرأ . . بعد بضع صفحات مللتها ورميتها على المائدة . . خرجت إلى الصالة فأغاظنى الفوضى الشاملة . . تعجبت من حجة غياب الشغالة التى أحالت البيت إلى فوضى . . بحثت عن مكنسة حتى عثرت على واحدة . . كنست الصالة وألقيت بقشر البطيخ فى صفيحة القمامة . . بحثت عن شىء آخر أفعله فلم أجد . . ثنيت إحدى الوسائد على حافة السرير ، واتكأت عليها بمرفقى . . هببت مذعوراً على صوت الجرس . . نمت فى مكانى دون أن أدرى . . طرقات على الباب تصاحب صوت الجرس . . نسيت أن أفتح ترباس الباب ليدخل الزميلان عند عودتهما . . فتحت لأجد مدحت أمامى . . قميص رصاصى نصف كم على بنطلون من نوع القماش نفسه . . صافحنى فى حرارة وجلس على المقعد . . سألنى إن كان عباس قد جاء ؟ فأجبته بالنفى . . ضحك على إغلاق الباب بالترباس وغمز بعينه . . لم أجد ما أقوله فضحك وضحكت . . دهش قليلاً لما رأى الصالة نظيفة على غير العادة . . سألنى فى لهفة :

– الشغالة وصلت ؟

– لا .

– من الذى نظف الصالة إذن ؟

– أنا !

رفع رأسه يحدق فى وجهى بدهشة ، ثم مالبث أن ضحك وقام إلى حجرته . . بعد قليل سمعته يناديني من شرفة عباس . . ذهبت إليه فوجدته يجلس بمنامة مشجرة . . ثرثرنا فى أكثر من موضوع . . فى مواجهة الشرفة جزء من حديقة لبيت بدا مهجوراً ، وجزء من ساحة واسعة لمدرسة إعدادية . . قال مدحت إنه دخل اليوم فى مناقشة حادة مع مدير المصلحة ، وإن المدير سبق له أن شكاه إلى عمه وإنه شبع من تأنيب عمه له ، وإنه ضاق بالأمر كله ، ولذلك يفكر فى الاستقالة ، فدهشت :

– الاستقالة ؟

– لاحل غير ذلك . . المرتب لايكفى وأهلى عودونى كثرة الإنفاق ، والآن لايريدون أن يروا وجهى !

اكتشفت أننا جميعاً نحصل من أسرنا على مبالغ فوق مرتباتنا ؛ مما يدل على أن وجودنا على هذه الأرض – قد « أفاد » الاقتصاد القومى كثيراً !

– وهل فكرت فى عمل آخر ؟

– عمل حر .

– ورأس المال ؟

– موجود .

سادت بيننا فترة صمت قال بعدها :

– أملك عشرة أفدنة . . ربما بعت نصفها مرة واحدة .

– لك خبرة فى عمل معين ؟

– سأشارك (كمال شاهين)

– من كمال شاهين ؟

دهش قليلاً ، لكنه قال فى هدوء .

– ألا تعرف (كمال شاهين) ؟ . . الذى سهر معنا ؟

– هم أربعة . . أيهم كمال شاهين ؟

– الطويل . . ذو الفك العريض والصوت الخشن .

– ماعمله ؟

– قطع غيار السيارات . . اتفقنا أن نتوسع .

وجاء عباس يحمل حقيبته المتفخة ، ومعها كيس فاكهة ، وثلاث دجاجات قال : إنه اشتراها بمساعدة صديقه موظف الجمعية التعاونية برغم الزحام الشديد من أجل الأرز والصابون ! ودخل المطبخ وعمل فى همة وهو يتشكى غياب الشغالة الذى أوقعه فى مسئولية طهو الطعام ، وسب صنى الكواء الذى يأتى مرة ويغيب مرات تاركاً أكثر القمصان متسخة . . ثم أكلنا ونمنا ، وأنا أقول لنفسى : إن النوم هو أحسن وسيلة للهروب من هذا العالم . . وقبل أن أغمض عينى ، سمعت « عباس » يهمهم باسم أمينة .

* * *

دق الجرس فخف عباس ليفتح . . السجادة الداكنة تزينت بدائرة « الشلت » وجو الحجرة ضاق بسحائب الدخان ، والشاب البارز العظام يسعل .

جاءنا صوت عباس يهلل عند الباب :

– هلت ليالى القمر . . لو كنت أعرف موعد وصولك لفرشت لك سجاداً على طول الطريق !

وسمعنا ضحكة ناعمة ، ومالبث أن دخلت علينا حسناء فى الخامسة

والعشرين ، عليها رداء أزرق فاتح ، ينهمر شلال من الشعر البنى على جسدها الملفوف !

قاموا لها باحترام . . صافحوها فى وقار . . أشاروا إلى دائرة « الشلت » وطلبوا منها التفضل بالجلوس . . حدقت فى وجهى بخوف فى البداية ثم تمّ التعارف . . ذهبت بعدها إلى حجرة مدحت وعادت ترتدى إحدى مناماته المشجرة . . بدت المنامة واسعة عليها ، لكنها أعطت جمالها طابعاً خاصًّا . . أعطوها انتباههم وتزحزحوا جميعا يفسحون لها مكاناً ، لكنها جلست بجوار مدحت الذى كان أقلهم احتفاءً بها . . لم تشرب معهم . . فقط كانت تعلق أحياناً على أحاديثهم بكلمات سريعة فيها ذكاء .

عندما بدأت نكات كمال شاهين الفجة ضقت بالجلسة وقت . . دخلت حجرتى فجاء عباس ورائى :

— من غير المعقول أن نكون نحن (سعداء) وأنت وحدك تحمل الدنيا على رأسك ! رجلى على رجلك .

حاولت أن أقنعه بأننى غير راغب فى الجلسة ، فلم يقتنع . . لم أقاوم طويلاً كانت لى رغبة فى تأمل الفتاة . . وسألته هامساً :

— من هذه ؟

— ناهد .

وقرب فمه من أذنى — برغم أننا وحدنا — وقال :

— متزوجة . . لكنها تحب مدحت .

ارتعت . . كيف هى متزوجة وموجودة هنا فى مثل هذا الوقت ؟ . . قال عباس :

– زوجها الموظف يتغيب كثيرا بحكم عمله . . وهى تسكن فى الشارع نفسه . . هى ومدحت بينهما قصة حب منذ أن كانت مخطوبة . هيا بنا إلى مجلس الإخوان .

عدنا إلى الجلسة من جديد . . قررت بينى وبين نفسى أن أبيع الأثاث فى الصباح وأعود إلى الفندق . . لاحظت أن ناهد تتميز بغازتين بديعتين ترغمان البصر على الاتجاه إليهما مهما قاوم . . حينما دارت الجوزة ، وأوغل الليل ، ورق النسيم ، وتراقصت غمازات ناهد ، وتحول لون الصوان أمامى من البنى إلى البنفسجى – بدت لى الدنيا بهيجة ، فقررت أن أكتب رسالة إلى سعاد ، أصف فيها سعادتى ، وأخبرها بأنها لاتهمنى فى شىء ! لأننى عثرت على مفاتيح السعادة ، فى المكان الذى سأقيم فيه طول عمرى .

لكن ، فجأة ، خيل لى أن كارثة ما قد حلت . . أناس يقفون فى الحجرة ، يتكلمون بصوت عال . . كلهم تخرج عنهم أصوات عالية ولا أحد يسمع . . وفجأة أيضاً هدأ كل شىء وضعت يدى حول رأسى لأتبين حقيقة ما حدث ، وبعد جهد عرفت أن « الإخوان » قد رحلوا ، وقام عباس ، وتمدد فوق سريره ، وقال لى ضاحكاً :

– مساء الخير يا أبو على

ثم أشار إلى حجرتى وطلب منى أن أذهب لأنام . . لم أفهم ما قاله فى البداية . . عرفت أنه يطلب منى أن أذهب عندما أطلق ضحكة هازئة عالية .

ولما دخلت الطرقة الموصلة إلى حجرتى ، شعرت بالخوف . . غارقة فى هدوء مفزع . . ظلال تنعكس عليها من مصباح الصالة السهارى . . جو أسطورى تنقصه الأشباح . . بدت لى المسافة إلى حجرتى طويلة وبلا نهاية . . فتح باب

الحمام فجأة ففزعت . . خرجت منه ناهد ملفوفة فى بشكير . . شعرها المبتل يلمع ، وغمازتاها تعلنان عن ابتسامتها ، ورائحتها الأنثوية تملأ خياشيمى . . قررت أن أعترض طريقها ، لكننى أفسحت لها الطريق . . سمعت باب مدحت يغلق وراءها !

* * *

الشقة غارقة فى الضوء ، والساعة بلغت العاشرة صباحاً . . أصوات الشارع تصلنى فى وهن ، والذهاب إلى العمل من المستحيلات . . أعتقد أن محاولات جرت لإيقاظى . . عباس أجلسنى على السرير ، لكننى قاومته . . الدش البارد يستطيع أن يعيد إليك وعيك . . فوق المائدة زجاجة لبن وثلاث بيضات . . تجهيزها لن يستغرق وقتاً على أى حال . . طعم البيض المقلى ، نصف الناضج أروع من رائحة ناهد . . من الذى يدق الباب الآن ؟

أمامى فتاة تميل إلى الطول . . تقاطيع وجهها توحى براحة البال . عينان بنيتان ضاحكتان ، يتغير لونهما مع تغير الضوء . . أسبلت عينيها فهالنى طول الأهداب !

– أى خدمة ؟

– أنا الشغالة .

لعلها تمزح . . من غير المعقول أن تنقلب الموازين إلى هذا الحد . إن كانت هذه شغالة فثمة خلل فى نظام الكون .. لكن أمارات الجد على وجهها . . مازلت محذراً منذ ليلة الأمس ، والأفضل أن تفسح لها الطريق . . انظر إلى فستانها البسيط لتعرف أنها شغالة فعلاً . . لكن – يا إله الكون – الفستان كأنه صنع من أجلها بأيد جاءت من وراء الطبيعة . . فى الثامنة عشرة تقريباً . . بياضها

مشرب بحمرة ، وربما حمرتها مشربة بسمرة . . أنت لست مخدراً . . ثمة خلل في نظام الكون . . وجهها يتودد إلى الناظر إليه ، دون أن تريد هي ذلك .

طفل في السابعة وطفل أصغر منه قليلاً يدخلان وراءها . . شعر البنت متهدل على جانبي وجهها . . كالقطة الصغيرة عندما تثني إحدى أذنيها وتميل برأسها وتنظر إلى أسفل . . الطفل يشبهها . . جلبابه أبيض عليه كتابة حمراء بدائية تفيد أنه ختن حديثاً . . مد سبابته نحو زجاجة اللبن ورفع رأسه إليها :

– أفطر .

شدته من يده بعنف ، حتى ارتطم وجهه بفخذها

– اخرس .

ضايقتني قسوتها . . أفرغت ما تبقى في الزجاجة في كوبين وناولتهما الطفلين . . لم يمد أحدهما يده إلى الأكواب . . رفعا رأسيهما الصغيرين ، ووجها إليها نظرات خائفة :

– خذ يا شاطر . . خذي ياحلوة .

عادت النظرات القططية من رحلتها ، وتسلطت على الأكواب . . لكن الأيدي ظلت على خوفها .

– قولي لهما يأخذا .

ابتسامة لم أر مثلها في مرارتها ، صاحبت أمرها لهما أن يشربا . . ولم تكن ثمة مقاعد في الصالة لأجلس الطفلين . . عملت لكل منهما شطيرة صغيرة من البيض وأعطيتهما . . وقفا يأكلان بسرعة أدهشتني . . كأنهما ديكان صغيران عاريان من الريش ، حبسا ثلاثة أيام بلا طعام ، وألقي إليهما الحب فجأة !

– متشكرين .

سمعت صوت الأمواج وشممت فى نبراتها رائحة البحر ، فهذه لاشك لهجة الأنفوشى :

– من إسكندرية ؟

– الوايلى .

نبرات صوتها تعلن عن عدم رغبتها فى الحديث . . قادت الطفلين وخطت إلى الداخل . . لمحت حجرتى عامرة فتوقفت :

– حضرتك سكنت هنا ؟

– نعم .

لم تقل شيئاً . . خطت إلى المطبخ ، بالابتسامة التى لم أر مثلها فى مرارتها . . حين سألتها عن اسمها قالت فى اقتضاب : أمينة .

وقلت لنفسى : ربما أنت تحلم أو ربما ما زلت واقعا تحت تأثير ليلة أمس !

* * *

٥

الشمس لم تطلع بعد ، وشمسيتى هى الوحيدة على الشاطئ . . كازينو كليوباترا الحمامات إلى اليسار ، وإلى اليمين تبدأ الكبائن المتشابهة بأبوابها الصفراء الباهتة . . خفت أن أنفجر غيظاً فى البيت ، فلجأت إلى الشاطئ . . سعاد عُينت فى وظيفة مرافق خاص للسيد حاتم ! والقرب من البحر يعطى إحساساً بسهولة الانتحار . . يقال : إن المعيشة فى دول الشمال أفضل منها فى البلاد الأخرى . . الزواج من امرأة نصف عمر تتفتح بعده أبواب السعادة ! . السيد شريف بنفسه قال : هذا ليلة أمس ! عم سعاد العظيم ، والمثل الأعلى فى أسرتها هو الذى أكد هذا ليلة أمس ! جلسنا فى الصالة أمام التليفزيون ننتظر سعاد ، وروى لنا قصة صديقه الذى ورث عن أبيه عشرين ألف جنيه . . كان سعيداً ومبتهجاً ، لأن صديقه أتى هذا الأمر الخارق ! رنة فخر تغلف صوته كأنه هو الذى ورث ! السيد شريف يعمل مديراً لأحد فروع شركاتنا ذات التعامل الواسع مع الجماهير.

قبل التأميم كان يجلس فى مقعده رجل إيطالى . . قفز هو بسرعة لذكائه النادر كما تقول والدة سعاد ، واحتل المقعد . . لم تكن الأمور . قد اتضحت بعد فى الشركة لأصحابها الجدد . . أدارها السيد شريف وأصدقاؤه الذين « يسهرون » معه . . أصحاب الشركة الجدد هم السيد شريف و« إخوانه » .

بعد التأميم بسنتين وضح التطور فى الشركة . . التحسينات العصرية التى

أدخلت عليها عادت على العاملين فيها بالخير ، فبنى السيد شريف عمارته الأولى فى « ميامى » . . العمارة (الثانية) كانت فى نهاية السنة الثالثة . . فى السنة الرابعة أوقف السيد شريف عن عمله وقدم إلى المحاكمة . . ومهما توارى الحق فلابد له أن يظهر يابنى ! ومادمت لا تؤذى أحداً فلابد أن يفتح الله لك طريقا ولو فى المحيط نفسه ! ظهرت براءة السيد شريف وعاد إلى عمله معززاً مكرماً ؛ ذلك لأن سمعة أحد رجال البلد المهمين يجب ألا تشوه مادام كل شىء مسجلاً باسم زوجته !

والدة سعاد من أشد المعجبين بالسيد شريف . . تلتفت إلى زوجها الموظف الصغير المسكين ، وتحيطه علما بأن كل الناس ركبت السيارات الفاخرة ، وهى الوحيدة التى مال بختها !

الشمسيات غطت الرمال دون أن أدرى . . بالقرب منى شمسية حمراء جديدة . . تحتها رجل وامرأة وطفلتها . . البنت الصغيرة شقراء ملونة العينين كأنها سويدية أو نرويجية لولا سمرة الشرق . . عليها لباس بحر أصفر يكشف عن ضلوعها . . تبنى لنفسها أهراما صغيرة من الرمال . . صفارة طويلة من عامل الإنقاذ ، لبضعة شبان توغلوا فى البحر . . موجة ظالمة اكتسحت أهرام الصغيرة . . انخرطت فى البكاء ، فهب أبوها يساعدها . . حركة عن يمينى ليست غريبة . . صوت أقدام تطحن الرمال . . ساقان جميلتان تقتحمان شمسيتى . . جسد صاحبتها محجوب خلف الشمسية ، والقدمان تصطدمان ومقعد البحر الصغير . . أنا أعرف هذه الساق . . هببت واقفاً فيما يشبه الفزع .

— سعاد ؟

جذعها منحن لتلاقى حواف الشمسيات المتزاحمة . . غطاء الرأس أبيض ،

والثوب القديم واسع عليها . . جلسنا وأنا ممسك بيديها الاثنتين . . هى تتكلم وأنا أحدق فيها دون نطق !

– دخت عليك . . الشمسيات كثيرة ومتلاصقة ومتشابهة ودخت عليك ماما لم تقل لى إنك جئت من مصر أمس . . قالت لى : خفت أخبرك لتأخر الوقت والصباح رباح . . عملت معها مشكلة طبعاً . . كنت خائفة أن تكون نزلت البحر ولاأجدك فى هذا الزحام . . حمداً لله على السلامة ياحسن . . سألت عنك بالبيت ، ووالدتك فتحت لى الباب ووقفت تحدق فى وجهى عشر دقائق قبل أن تدعونى للدخول وكأنها لا تصدق أننى أنا . . نادية أختى جاءت معى وتبحث عنك الآن فى الجانب الآخر من الكازينو ، وربما تاهت الآن . . مالك تحملق فى وجهى دون نطق كأن سهم الله نزل عليك ؟

النظر إلى وجهها المسمسم اللطيف ، وتأمل حواف شعرها الأسود أسفل غطاء الرأس ، والإحساس بدفء أصابعها الطويلة السرحة – أبلغ من أى حديث !

خلعت حذاءها وأفرغت منه الرمال ، واستندت على عمود الشمسية . . جاء بائع الكوكا كولا فاشترينا زجاجتين . . أدارت الزجاجة بين يديها وتأملتها :

– عمى شريف كان عندنا الليلة . . كان يشكر فيك طول الوقت .

طارت نشوتى فى الحال مادام السيد شريف يمدحنى فالمقصود هو العكس .

– أخبرته أن « حاتم » تقدم لخطبتى فتحمس له . . قال لى : حاتم يناسبك جداً !

الشمسيات اقتربت وابتعدت وأهرام الصغيرة ارتفعت وانخفضت ، ودار البحر فأصبح فى الجنوب ، وتحول الشاطئ إلى الشمال . . أعتقد أننى يجب أن

أعرف سعاد من جديد . . متقلبة المزاج حقًّا ، لكن هذا وحده لايكفى معرفتها ! لمعة خفيفة من زاوية عينها فضحتها . . أرسلتها لترى أثر كلامها فوضح عبثها . . أمالت رأسها إلى الجانب الأيسر وقالت فى دلال مصطنع :

– شاب ممتاز . . اتفقنا على كل شىء .

برغم إحساسى بمزاحك وبرغم حبى لدلالك المصطنع فإننى خائف . . الله وحده يعلم أننى خائف .

– بابا شريف قال لى : إنك شاب ممتاز حقًّا ، لكن مسئوليات الزواج صعبة عليك ! أعطتنى نصف ظهرها ، وهى تلصق ذقنها على كتفها وتنظر لى مبتسمة وتهم بقول شىء ؛ وهى بهذا الوضع رأت جارتنا الصغيرة تقيم أهرامها الجديدة على الرمال . . نسيت ماكانت تنوى قوله وصاحت بفرح طفولى :

– انظر ! بنتٌ مثل السكر .

قربت وجهها من وجهى وقالت فرحة :

– ليتنا نخلف بنتاً فى حلاوتها .

وفى تلقائية محببة – ذهبت إلى الطفلة وجاءت بها . طاوعتها الصغيرة مسرورة ، وأبوها وأمها يبتسمان . . جلست وضمتها إليها وهى تسند ذقنها على صدرها :

– اسمك يا سكر ؟

– عبير .

التفتت إلى فى بهجة كأنها اكتشفت شيئاً غير عادى :

– خلاص . . نسميها عبير .

لمحت أرجل بنطلون بائع الكوكاكولا خلال الشمسيات ، فأسرعت بدفن

الزجاجتين فى الرمال ، ولمعت الشقاوة فى عينيها . . وقف الرجل ينظر إلينا فى شك ، ويدور بنظره على الشمسيات المجاورة . . انشغلت هى فى مداعبة الصغيرة وتجاهلته تماماً . . تشجع الرجل وتساءل :

– عندكم زجاجتان ؟

رفعت إليه رأسها اللطيف بخوذته البيضاء .

– نعم ؟

– أظن أنا أحضرت زجاجتين ؟

ضخمت صوتها تبالغ فى تقليد لهجة حوارى المدينة .

– (تشتغلوا علينا ياعم) .. (من الصبح قاعدين فى أمان الله وفى الآخر تقولوا لنا ماعرفش إيه)

ضحك الرجل فى اطمئنان . . طريقتها فى مط الكلمات لم تكن متقنة كما يجب . .

قال لها باللهجة نفسها :

– طيب اطلعى منها والحقينا بالفوارغ ربنا يخلى لك الكابتن ويرزقكم كل يوم « جوزين جنيهات »

هبت فجأة وخلعت ثوبها . . وأظهر لباس البحر الداكن الحمرة جسدها دقيق التكوين . . دست الثوب فى سقف الشمسية وأوعزت للعائلة المجاورة بحراسته . . قدمت ساقها اليمنى ، وثنت ركبتها ، ومالت بجذعها إلى الأمام قليلاً تستعد للعدو :

– أنت صدقت أننا سنخلف بنتاً نسميها عبير ؟

– طبعاً . .

– طبعاً ؟ . . معقول أضيع مستقبلي مع ولد هايف مثلك !
وتسابقنا . . أينا يصل البراميل قبل الآخر ؟

* * *

٦

خمسمائة جنيه وعشرة كانت فى جيبى . . سيارة الأجرة تنهب بى الطريق الزراعى ، والحقول الفسيحة حولى توحى بالأمان . . ثمن حصتى فى بيتنا الجديد كافية تماماً لزيجة نصف متواضعة . . الشقة فى بيتنا القديم وعندما نفكر فى السكنى بالقاهرة قد يأتى الله بالفرج . . دخلى ودخلها كافيان للضروريات . . دروسها الخصوصية لكمالياتها . . اتفقنا أن أجتهد فى البحث عن عمل إضافى لكمالياتى . . الأيام القادمة ستكون صعبة ورائعة فى وقت واحد ! بيت تعيش سعاد بين جدرانه لاتتوقف أمامه صعاب !

فى استراحة طنطا أصررت على أن أدفع ثمن مشروبات كل الجماعة التى تركب معى سيارة الأجرة ! انتهزت الفرصة ورويت لهم قصة حبى . . بين الحين والحين أدخل يدى فى الحقيبة الصغيرة وأتحسس النقود . . هذه أول مرة فى حياتى أحمل فيها مثل هذا المبلغ أنا فى حاجة إلى أناس أروى لهم كل شىء عن يومى الأخير بالإسكندرية .

دخلت القاهرة بخطوات راقصة . . فى داخلى يتردد لحن : «ياحبيبتى يامصر» . ستتغلب على كل مشاكلنا ونتنصر . . سنملأ بلادنا بالمصانع ، وسنزرع كل الصحارى العربية ، بما فيها الصحراء الكبرى . . حينما دخلت الشقة وجدت «أمينة» والطفلين . . رقص قلبى لمرأى الطفلين . . تذكرت «عبير» جارة الشاطئ وناديت الصغيرين . . جلست على المقعد لأنه يواجه

المطبخ . وملت بجذعى إلى الأمام أداعبها :

– أخواتك يا أمينة ؟

– أولاد أختى .

ردها مقتضب يوحى بعدم الرغبة فى الكلام . . ابتسامة مغتصبة مشحونة بالمرارة . . انتهت من الغسيل وتجهيز الغداء . . من مكانى لا أرى غير جزء من ظهرها . . تمنيت لو جاء عباس أو مدحت لأروى لها يومى الأخير الرائع . . تنبهت إلى الطفل يمسك بيدى ويروى لى حكاية طويلة لم أفهم منها شيئاً . . ضحكت من منظر أسنانه المخلعة . . الصف الأعلى ليس به غير سنتين متجاورتين . . تحتهما تماما فى الصف الأسفل ، مكان خال لسنتين مخلوعتين . . كأنه تعمد هذا ليدخلها مكانهما .

خرجت أمينة من المطبخ ودخلت الطرقة . . دهشت . . هذا ليس وجه شغالة . . هذه الرشاقة لاتليق إلا بممثلة من الصف الأول تقوم بدور خادمة . . عباس معذور إذن . . هذا جمال صاعق . . لو أن هذه الفتاة ارتدت ثوباً فاخراً من ثياب السهرة ودخلت إحدى حفلات علية القوم ، لانحنت لها جباه تتحكم فى عالمنا ! عباس معذور إذن . . لكن أليس من الواجب أن أفعل شيئاً من أجلها ؟ . . أليس من واجبى أن أحاول حمايتها من عبث عباس جنسىّ المشاعر والأحاسيس ؟ . . أعتقد أنها ليست فى حاجة إلى هذا . . الدليل أن نصف مذكرات عباس تشكوها ! هى قادرة على حماية نفسها . . لكن . .

خرجت من المطبخ وأسندت يدها على بابه . عيناها أضاعتا منى نصف الانتباه . . قالت فى حياء :

– أقول لحضرتك على حاجة !

– خير .
– نفقات البيت تكون معك .
– والسبب ؟
– مدحت لايعطينى حتى كاملاً فى نهاية الشهر .
رفعت رأسى إلى صورة مدحت فى الصالة :
– حاضر . . ابتداء من اليوم اعتبرينى المسئول .
وظهرت ابتسامتها المشحونة بالمرارة . .

* * *

انعقدت الجلسة عند مدخل الشرفة . . الطبق الكبير غاص بالرماد ، تتوهج عليه الجمرات والحجارة البنية فى صف طويل عامرة بالمعسل . . قررت ألا أشاركهم ولو انطبقت السماء على الأرض . أريد أن أحتفظ بعقلى كاملاً أسترجع يومى الأخير فى الإسكندرية .

فكرت فى أن أفاتح مدحت فيما قالته أمينة ، لكنى أجلت ذلك إلى الغد . . عرفت أن اثنين من « الإخوان » جامعيان يعملان فى غير تخصصاتهما . . الثالث ثانوية صناعية ويعمل – بعد الظهر – مع كمال شاهين . . الأخير من حملة السادسة الابتدائية ، ويفخر بأنه نسى القراءة والكتابة باستثناء الأرقام . ملك الجلسة غير المتوج . . نصف نفقاتها على حسابه . . فى حضرته ممنوع أى حديث لايستطيع فهمه أو المشاركة فيه . . عليهم جميعاً أن يضحكوا للنكات الفجة مادام هو يضحك لها . . هو الوحيد المتزوج فى الجلسة كلها . . الشاب البارز العظام – وكان خريج تجارة – قال بعد الدورة الثالثة :

– عشرة آلاف مليون جنيه نفقات المعركة ، من يوم ٥ يونيو لغاية نهاية حرب أكتوبر !

قال القصير البدين يقرب الأمر إلى ذهن كمال شاهين :

– يعنى عشرة آلاف متر ذهب مكعب يا أبو كمال !

كانت عينا كمال شاهين جاحظتين وهو يطبق بشفتيه على غابة الجوزة ويشد نفساً طويلاً بقوة . . أغمض عينيه والدخان يتسرب من أنفه ببطء شديد . لما انتهى من ذلك هز رأسه وقال بلا اهتمام :

– عال .

– ويقال إن عددنا سيصل خلال العشرين سنة القادمة إلى سبعين مليوناً .

قام عباس فجأة وشد إليه ملاءة سرير ، ووضعها على كتفيه ، وأسدل طرفها على ظهره كالعباءة . . جلس متربعاً وهو يقول فى مرح :

– لذلك قررت الإضراب عن الزواج للتخفيف عن البلد !

موجة عالية من التصفيق الحاد والضحكات العالية . . تهليل مبالغ فيه كأنهم يؤيدونه بحرارة على موقفه . . لكن كمال شاهين التفت إلى عباس وقال له فى ضيق :

– هات لنا الفاكهة .

قبل أن يتحامل عباس على نفسه ويقف دق جرس الباب . . ذهب ليفتح وهو يلف الملاءة حول جنبيه . . بعد قليل عاد يرحب بامرأة تقترب من الثلاثين . . مظهرها يوحى بأنها ربة بيت . . جمال هادئ ، وعينان وديعتان وإن كانتا تدعيان الجرأة . . استقبلوها بتهليل عظيم . . حدقت فى وجهى قليلاً وتم التعارف . . الزميلة سميرة إبراهيم . . موظفة بمصلحة البريد . . أسندت يدها

على كتف مدحت ومالت بجذعها تستقبل الجوزة الممدودة . . اعتدلت وفتحت فاها عن آخره ، ونفثت موجة كثيفة من الدخان . . صاحوا يطلبون منها أن تدركهم بفمها جذبت ملاءة السرير من عباس فدار حول نفسه . . تحزمت بها ورقصت وهم يضبطون لها الايقاع على أكفهم ويضحكون .

جلست تحت موجة عالية من التصفيق . . التصقت بعباس وأسندت رأسها على كتفه . . طوقها بذراعه وطالب بخمسة أحجار متتابعة لتحية سميرة ! قلت لنفسى فى الصباح تبيع الأثاث وتعود إلى الفندق . . دق جرس الباب وقام عباس . . بعد ثوان وقفت ناهد أمام باب الحجرة . . حين رأيت الغازتين الحلوتين عدلت عن فكرة بيع الأثاث !

* * *

رفع عباس سماعة التليفون من مكتبه المواجه لمكتبى وقال لى فى لهفة :

– إسكندرية تطلبك .

تعثرت فى أحد المقاعد وأنا أقوم مسرعاً :

– آلو . . أنا شريف ياحسن .

– أهلا شريف بك .

– أريدك لأمر هام .

– خير ياشريف بك ؟

– كل خير . . حاول أن تحضر اليوم . . أو غداً على الأكثر .

– ممكن آخذ فكرة ؟

– المسألة بسيطة ولاتشغل بالك . . فقط الأمر يتوقف على حضورك .

– أعطنى ولو فكرة بسيطة .

– عندما نلتقى . . قل لى متى تحضر؟

– الآن .

حصلت على إجازة ليومين ، وسارعت إلى الشقة وسحبت من المبلغ عشرة جنيهات ، وللحظة فكرت فى أن أضع المبلغ كله فى جيبى لكننى خشيت أن يضيع منى فى الطريق . . أخيراً وضعته (بظرفه) فى مكانه من الصوان ، بعد أن أغلقته ووضعت بضعة قصان فى حقيبة صغيرة ونزلت .

من محطة سيدى جابر اتصلت بالأستاذ شريف تليفونيًّا . . هلل لى وقال : إنه ينتظرنى بالبيت .

ما إن جلست حتى لاحظت حفاوته المبالغ فيها . . جاءت لنا ابنته بعصير مانجو ، ثم انسحبت هى وأمها وأخليا لنا البيت بحجة زيارة عائلة صديقة .

تنحنح طويلاً قبل أن يقول لى :

– أنت إنسان عاقل جدًّا يا حسن .

– بعض من فضلك .

– الحقيقة ، يعجبنى اتزانك ، وتفهمك للأمور بطريقة واقعية .

لم أرد . كنت مشغولاً بما بعد هذا التمهيد . . واستطرد :

– من مدة طويلة وأنا أحاول مفاتحتك فى هذا الموضوع . . لكن الأمر لم يكن مهيأً كما يجب .

كنت أحدق فى وجهه أحاول أن أستشف مايريد قوله ، ولكن دون جدوى . . فقط شعور بالانقباض يتابنى .

– أنت طبعاً تحب سعاد . . أليس كذلك ؟

– بلى .

– والمفروض فى المحب أن يتمنى لحبيبه الخير . . هل هذا صحيح ؟

– صحيح .

– بصراحة وبدون جرح لشعورك ، سعاد وحاتم أصبحا يميلان لبعض ! ولذلك كلفت أنا إخطارك . . ووافقت على أساس معرفتى بأنك ستتفهم الأمر كعهدنا بك . ولم أفهم ما يقوله فى البداية . . مضت لحظات لا أعرف مقدارها وأنا أحدق فيه فيما يشبه البلاهة . . أخيراً سألته :

- من كلفك ؟

- سعاد نفسها .

- هل يمكن أن أقابلها ؟

انشغل فى التحديق فى أصابعه المشعرة الممتلئة دون أن ينطق . . وحينما رفع بصره لاحظت أن لغده المترهل بدأ يشكل ذقنا آخر له . . وقالى لى وهو يبتسم :

- المقابلة غير ممكنة . . لأنها فى غير مصلحتك ومصلحتها !

- أصر على أن نلتقى .

دخل إحدى الحجرات وعاد يحمل ظرفا أزرق ، مده لى ففتحته وقرأت خط سعاد :

« عزيزى الأستاذ حسن . . يؤسفنى أن أقول لك : إننى بدأت أحس بفتور من جانبك فى الفترة الأخيرة . . والحقيقة أن الفتور مشترك وليس من جانب واحد ! وكنت أود أن أخبرك لكن الظروف لم تكن تسمح . . والحقيقة : أنت شاب ممتاز فعلاً وأى واحدة تتمناك . . وأرجو أن أشهد حفلة زفافك على من اختارها قلبك فى القريب العاجل ؟

أختك : سعاد »

برغم أن الخط خط سعاد فإننى لم أصدق هذا إلا فى اليوم الثانى ، لذلك قضيت فى اليوم الثانى ليلة معربدة عند امرأة فى الإبراهيمية عرفنى بها أحد الأصدقاء القدامى . . وحينما عرفت أمى فى يومى الأخير ما داربنى وبين السيد شريف ثارت ثورة جامحة . . وتحدثت عن أصولهم وأنسابهم بأشياء غريبة سمعتها لأول مرة ! ودهشت على موافقتها الأولى على مصاهرتهم على حين أنهم كما

وصفتهم ! وقالت فى ثورة غضبها إنها ستزوجنى سيدتها وسيدة أسرتها ! وترجمت قولها عملياً ، واتصلت بأسرة كانت تجاورنا يوماً ، ودعتها لزيارتنا . . ولم تمض ساعة حتى كانت الأسرة الصديقة تدخل بيتنا تتقدمها كبرى بناتها (لطيفة) بقوامها الأهيف لولا طول أنفها !

لم أستطع الجلوس معهم . . استأذنت فى الخروج برغم احتجاج أمى وذهبت لزيارة صديق القديم « هانى » بمنطقة محرم بك . . رويت له ماحدث وتلقيت مواساته ، ثم ضقت بكل شىء وقررت السفر .

حينما وصلت القاهرة اكتشفت أننى نسيت سلسلة مفاتيحى بالإسكندرية ، فاضطررت لكسر باب الصوان .

* * *

قضيت أسبوعاً كاملاً أنام النهار ، وأتسكع فى شوارع القاهرة طوال الليل . . أحياناً أدخل إحدى الحانات وأدفع ثمن الشراب وأخرج دون أن أتناوله ! وأحياناً كنت أسرف فى الشراب حتى أفقد توازنى . . ذهب مدحت إلى رئيسى فى العمل – وكان قريبه – واعتذر له عن تغيبى فقبل عذره . . فى اليوم الأخير من الأسبوع ظللت أتسكع حتى السابعة صباحاً . . حينما فتحت باب الشقة رأيت منظراً غريباً . . عباس وأمينة يقفان فى الصالة . . هو يدور حول نفسه فى حرج ، وهى مقطبة الجبين ، والطفلان يبكيان . . فى سرعة عجيبة تناول حقيبته وخرج . . لم أهتم . . كنت فى حاجة إلى النوم ، وغير مستعد لأى شىء . . فكرت للحظة أن أرتدى ملابسى ، لكننى قررت أن أنام كما أنا . . فوجئت بأمينة تطرق الباب من الخارج . . كان الباب مفتوحاً فصحت فى جفاء .

– نعم ؟

وقفت فى مدخل الحجرة وقالت فى انفعال :

– أقول لحضرتك على حاجة !

– خير .

– نفقات البيت تكون مع حضرتك .

– قلت هذا من قبل . .

دهشت لصياحى ونبراتى المغيظة . . قالت وهى تنسحب :

– قصدى أفهمك على حاجة ثانية .

صحت من مكانى لأسمعها صوتى .

– قولى عن الحاجة الثانية .

لم ترد . . ظلت لبرهة قصيرة أنتظر قدومها فلم تأت . . دخل على الطفلان ، فلوحت لهما بيدى فى ضيق ، فتقهقرا مذعورين . جلست لبرهة قصيرة أفكر هل أرقد أو أعاود الخروج ؟ ثم ما حكاية هذه البنت ؟ . . المصانع الآن تستوعب كل البنات ، فلماذا لا تلتحق بأحد المصانع ؟ . . هناك حلقة مفقودة مطلوب منى معرفتها ! لو كان مدحت وعباس يجزلان لها العطاء لكان وجودها هنا معقولاً . . لكنها – باعترافها – تعانى منهما فلماذا هى هنا ؟ . . أليس من المعقول أن تكون ممن يستغلان جهلهن وتتظاهر بعكس ذلك لعدم استلطافها لعباس مثلاً ؟ . . النساء هكذا . . يتمنعن وهن الراغبات ، وإلا فمن يصدق أن يصدر مثل هذا التصرف عن سعاد ؟ ليس للمرأة إلا السوط والفراش ! خرجت من الحجرة ودخلت المطبخ . . وضعت يدى على كتفها وقلت لها متصنعاً الحنان :

– قولى عن الحاجة .

تماوج كتفها كما يتماوج ظهر القطة ، فانزلقت يدى ، استدارت ولاذت بالجدار وهى تحدق فى بعينين مذعورتين .

– كنت أظن أنك ستحمينى .

– أحميك ؟

– ظننتك مختلفاً عنهما .

خجلت . . انسحبت فى هدوء ، وأغلقت على باب حجرتى ، ومالبثت أن استغرقت فى النوم بكامل ملابسى .

* * *

– حجرتك لطيفة جداً . . قررت أنام فيها الليلة .

قالت لى ذلك سميرة إبراهيم ، صديقة عباس ، والجميع يدورون حول الجوزة ، والحجرة غارقة فى الضباب برغم باب الشرفة المفتوح .

أحسست أن (مدحت وعباس) هما اللذان أشارا على سميرة أن تقول ذلك . . فطوال السهرة وهى لاتفارقنى ، على حين جلست ناهد بجوار مدحت بعد أن ارتدت إحدى مناماته .

لم أقل لمدحت أو لعباس ما حدث لى فى سفرى الأخير للإسكندرية . . لكنهما أحسا من تصرفاتى خلال الأسبوع الماضى بأن كارثة ماحلت بى واحترما احتفاظى بسرى لنفسى .

كان كمال شاهين يروى نكتة من نكاته الفجة عندما دق جرس الباب وقام عباس ليفتح . . لا أذكر تماماً ما حدث بعد قيام عباس . . كل ما أذكره صوت خطوات مسرعة فى الطرقة ، وعباس يلح على أصحابها ماذا يريدون ؟ ثم

خمسة رجال يقتحمون علينا الحجرة .

ناهد تهب واقفة وتشهق شهقة عظيمة ، تتهاوى بعدها على السجادة مغمى عليها . . أحد الرجال – وكان فوق الخمسين – عليه سترة بنية ، يصفها بأقذع الألفاظ ثم يهجم على مدحت ويطبق بيديه على عنقه . . الحجرة يدور فيها قتال غريب . . ينقلب الكوميدينو . . تتبعثر جمرات النار على السجاد . . أكواب شاى تتحطم . . ماء الجوزة يجرى على السجاد . . يهدأ كل شىء فجأة . . يذهب الرجل ذو السترة البنية ومعه اثنان . . يبقى معنا اثنان ، أحدهما يجثو على ركبتيه وينهمك فى إفاقة ناهد . . سميرة تبكى فى هستيرية ، وعباس يقف فى ركن الحجرة يتحسس فكه الذى نالته لكمة قوية .

* * *

٨

لم نجد طعاماً فى الشقة ، عندما دخلنا ، عباس وأنا . . الصالة غارقة فى بحر من الفوضى ، وفوق سرير عباس كومة من قمصاننا المتسخة . . دار عباس حول نفسه وقال :

– شىء متناقض . . عدم تنظيف الصالة يدل على أن أمينة لم تأت اليوم ، وكومة القمصان تدل على أنها جاءت ، واستعدت للغسيل .

– ربما جاءت وأرسل أحدهم فى استدعائها .

خرج عباس وعاد لنا بطعام سريع . . ورحنا نثرثر على الطعام حول طلاق ناهد من زوجها وسفر مدحت إلى القرية لإحضار نقود . وعرفت من عباس أن شقيق ناهد – وهو الذى انهمك فى إفاقتها – رجاهم أن يظل الأمر سرًّا إلى أن يجد سكناً جديداً خارج منطقة « حدائق القبة » . . وقال عباس فى احتجاج :

– تصور . . مدحت يريد الزواج من ناهد ؟

– وماله ؟

– ماله ؟ . . رجل فى مثل مركزه ، يتزوج واحدة مثلها ؟

– أتعنى أنها امرأة سيئة ؟

– طبعاً . . واحدة ترضى لنفسها أن تقيم مع رجل أعزب ! نهايته .

كنت فى حالة نفسية مستعد معها لأن أقاتل طواحين الهواء . . قلت فى غيظ :

– ولماذا رضى هو لنفسه وهو صاحب المركز كما تقول – أن تقيم معه ؟

– هو رجل . .

– أتعنى أنه يحق للرجل مالا يحق للمرأة ؟

لوح بيده وقام ليغسل يديه ثم عاد ليقول :

– عارف . . لولا وجودى هنا ، ما مكثت معنا أمينة يوماً واحداً .

– تعاملها معاملة طيبة .

– ليس هذا القصد . . مدحت لايدفع لها راتبها . . أنا أتكفل بنصيبه ونصيبى فى أكثر الشهور . . اللهم إلا فى الحالات التى أكون أنفقت فيها أكثر مما يجب .

ولما كنت أعرف أن الحالات التى ينفق فيها أكثر مما يجب هى القاعدة – فقد عرفت الآن لماذا هى دائمة العبوس . . وندمت لأننى لم أعتذر لها على خطئى فى حقها منذ بضعة أيام . . وأقنعت نفسى بأن حالتى النفسية ليست على مايرام ، وقررت أن أسترضيها فى أقرب فرصة .

وجلسنا فى حجرته نشرب الشاى ، ثم قال بحماس :

– ليكن فى علمك . . أمينة هذه من عائلة طيبة جداً . . إخوتها كلهم موظفون وأبوها رجل محترم .

– ياسلام ؟

– ألا تصدق ؟ ، والله العظيم أمينة من أسرة كريمة . . وهى تعمل فقط كى لا ينفق عليها أبوها أو أحد من إخوتها . . (إنسانة) عزيزة النفس بشكل لاتتصوره . . كانت موظفة ، واتهمت فى قضية سياسية ، ففصلت من عملها . . معك سجائر ؟

أشعل سيجارة وقام يفتح صوان ملابسه .

– الله ؟ . . أين زجاجة الكلونيا . . هل أخذتها ؟

– لا .

– زجاجة جديدة اشتريتها ولم أفتحها بعد . . الله ؟ . . أين الكرافتات ؟ . . وأين قماش القمصان الجديدة ؟

ووقف يحدق فى وجهى ببلاهة . . وقمت من فورى وفتحت صوان ملابسى ، فلم أجد ظرف النقود . . درت حول نفسى :

– عباس .

جاء على أثر صيحتى :

– ظرفى أنا أيضاً غير موجود .

– أى ظرف .

– ظرف به حوالى خمسمائة جنيه .

لطم خديه وصرخ بأعلى صوته :

– يومنا قطران ! وأنا قررت أهج من البلد . . لا أحد غير بنت الكلب . . أنا متشكك فيها . . طول عمرى متشكك فيها .

– من ؟

– سميرة إبراهيم .

كنت على استعداد لأن أتهم أى إنسان . . طلبت منه أن يدلنى على مسكنها فوراً . . لكننى سألته :

– هل كانت هنا الليلة الماضية ؟

– لا .

– هل معها مفتاح للشقة ؟
– لا .
– أنا أذكر أنى رأيت النقود ليلة أمس .
وضع يديه فوق رأسه وقال :
– من فى رأيك ؟
ترددت قبل أن أقول :
– أمينة ؟
قال فى حرارة :
– لايمكن . . أمينة تؤمن على الذهب !
– واحد من أصحابكم ؟ . . أقصد ربما مع أحدهم مفتاح للشقة ؟
– مستحيل . . أصحابنا أولاد ناس ومحترمون .
– أمينة ؟
– قلت لك لايمكن .
لم أتحمل . . صرخت فيه :
– سأبلغ عنكم البوليس جميعاً يا أولاد الكلب ! . . كلكم لصوص ! . . أنتم جميعاً حقراء وسأضعكم جميعاً فى السجن !

لم يرد عباس . . احتفظ بأعصابه هادئة . . ذهب إلى حجرته ثم جاء ليجلس بجوارى . . كانت الحجرة تدور بى وصورة كبيرة لسعاد تدور فى الزوايا ، وفى الخلفية يظهر السيد شريف وعلى شفتيه بسمة ساخرة . . وقال لى عباس فى هدوء :

– أنت أخطأت فى حقى ، وأنا مسامحك . . أما نقودك فسأدفعها لك بالقرش الواحد .

ثرت فيه وبسمة السيد شريف الساخرة تستفزنى . .

– قم من هنا يالص يابن الكلب ! . . ما الذى تملكه يا هلفوت حتى تدفع لى ؟ ! قم حالاً الآن وإلا ضربتك !

* * *

رويت ماحدث لضابط البوليس فى اختصار . . وكان مدحت قد عاد من البلد ، وذهب معنا إلى قسم البوليس واتهم « أمينة » . . عارضه عباس فى البداية ، لكنه وافقه بعد ذلك . . ذكر مدحت اسم « شغالة » أخرى اسمها « هانم » ، قال إنها هى التى جاءت له بأمينة . . جاء الضابط معنا وعاين الشقة . . أشار إلى صوان الملابس قائلاً :

– طبعاً هى التى كسرته .

– لا . . نسيت مفاتيحى فى الإسكندرية ، وكسرته .

عدنا معه إلى قسم البوليس ، فكلف أحد المخبرين إحضارَ أمينة وهانم .

ولولت « هانم » عندما رأتنا نستدعيها من البيت الذى تعمل فيه ، وقالت : إنها تخاف الذهاب الى القسم ، لكنها مستعدة أن تدلنا على بيت أمينة ، فوافقها المخبر الذى قال لنا ما معناه : إنه يملك خطة جهنمية لإحضار النقود .

كان الوقت بعد الظهر بقليل ، والجو حار . . أمام إحدى حارات الوايلى ، ميدان صغير مؤلف من التقاء حارتين على خرابتين متقابلتين . . كشك لبيع السجائر ليس به غير بضع صناديق سجائر ، وعدة بواكى من البسكويت الرخيص ، وعلبة كبيرة بها كمية من الأسبرين ، وأكياس بيضاء كثيرة من

الفحم . . فى داخل الكشك جلست صبية فى العاشرة مهوشة الشعر . . حينما اقتربنا منها وضح لى الشبه بينها وبين أمينة .

مدت هانم سبابتها فى نافذة الكشك ، وحولتها إلى الأرض عن يسار الكشك وقالت بلهجة باكية :

– أختها . . وأمها .

نظرت إلى حيث أشارت سبابتها فرأيت امرأة مفرطة البدانة ترقد على جنبها الأيسر فوق جوال فى ظل الكشك . . عليها رداء أسود مترب ، وتلف رأسها بخمار بنى باهت ويدها تحت رأسها .

خرجت الصبية من الكشك ، وركعت على ركبتيها على الجوال وهزت الجسد الراقد :

– ماما . . ماما .

مد المخبر يده إلى علبة البسكويت ، داخل الكشك ، فتناول « باكو » وفتحه ومضى يقطع به الوقت !

فتحت المرأة عينيها فرأتنا . . اعتدلت جالسة وقد وضعت إحدى ساقيها تحت جسدها . . مضت تحدق فينا وشفتها السفلى ترتعش . . أشارت الصبية إلينا وقالت لها :

– سألونى عن أمينة .

قالت ذلك بصوت عال جدًّا والمرأة مازالت تحدق فينا . . عيناها واسعتان وجانب وجهها مترب وخصلة شعر بيضاء تطل فوق أذنها من ثقب كبير فى الخمار .

– من يريد أمينة ؟

وشى صوتها بأنها ثقيلة السمع . . خالطته نبرة تحس معها أن صاحبها نفض يده من الدنيا عن عجز وقهر وعدم فهم . . صفحة خدها غير المتربة بها آثار شقوق ربما من تأثير الشمس . . شفتها العليا يشقها خط عميق من منتصفها كأنها شفة جمل !

مدت يدها فى اتجاه الحدائق قائلة فى ضجر :

– أمينة عند الأستاذ مدحت . .

وللحظة خيل إلى أنها تهم بمعاودة الرقاد . . لكن المخبر قال لها بصوت عال :

– هذا هو الأستاذ مدحت . . أين أمينة ؟

هبت المرأة واقفة فى نشاط دهشت له . تقدمت من مدحت وقربت وجهها من وجهه وضيقت عينيها :

– أنت مدحت ؟

قبل أن يرد مدحت أو ننتبه إلى ما حدث – فوجئنا بها تقبض على ياقة قميصه وتلفها حول يدها حتى لتكاد أن تخنقه :

– أنت مدحت ؟ . . أنت ؟ .

هزته بعنف ونحن نحاول تخليصه منها وهى تصرخ :

– أنت مدحت . . أنت الذى تأكل أموال اليتامى ؟ . . أنت ؟

صرخ فيها المخبر وكلنا يحاول تخليصه منها :

– اختشى يا ولية . . أنت عارفة ما عملته بنتك ؟ .

تركت المرأة قميص مدحت ، وحدقت فى المخبر الذى أشار ناحيتى وأضاف :

– سرقت فلوس البك . . ألف جنيه . . أنا بوليس .

عينا المرأة صورة مجسمة للهلع والبلاهة . . حدقت فى وجهى وكأنها لاتنظر إلى شىء . . ثم فى وجه المخبر . . ثم وجه عباس . . ثم فى وجه ابنتها . . وتراجعت ، وجلست على الجوال متربعة . . رأسها مرفوع يحدق فينا وعيناها تطرفان . . ولا أدرى لماذا خيل إلى أنها تبتسم . . ابتسامة من يختلط عليه الأمر بين الحلم والواقع !

* * *

لم أتنبه إلى الصبية وهى تدخل البيت القمىء المواجه لظهر الكشك . . تنبهت وهى تعود ومعها امرأة فى الثلاثين ، شديدة البياض ، تعلو وجهها صفرة ، عليها رداء رخيص ، وخمار أسود . . وضعت يدها على رأسها أمامنا وولولت بصوت مبحوح :

– يا خراب بيتنا . . يا مصيبتنا . . البيت قدامكم ، فتشوه . . أمينة عند خالتها من يومين . . ماذا فعلنا فى دنيانا ياربى . . فتشوا البيت !

ومضينا فى إثرها يتقدمنا المخبر والصبية على حين لم تتحرك الأم من مكانها .

لأول وهلة خيل إلى أنها قادتنا إلى مكان آخر كى تضللنا . . فلم يكن فى الحجرتين الصغيرتين المتداخلتين غير سرير حديدى مائل ، أعمدته تقشرت ، وبضعة أجولة من الخيش بعضها مخيط فى بعض مفروشة على الأرض فى الحجرة الداخلية ، ووسادة طويلة وطفل رضيع نائم ، وفوقه نافذة ، أو ربما كوة مستديرة من الخشب «الأبلكاش» .

أحست بحركة ورائى ، فالتفت لأرى الطفلة الصغيرة التى تأتى بصحبة أمينة . . ترفع رأسها إلينا فى استغراب . . لم أتبين ملامحها لرداءة الضوء إلا بعد

وقت طويل . . خلفها جاء الطفل بجلبابه الأبيض وخطوطه البدائية تنبئ بالختان . . التصق الطفلان بالمرأة التى مضت تولول :

– ربنا يكفنا شر الحرام . . نحن نبعد عن البلاء والبلاء لايريد أن يتركنا ! البيت قدامكم فتشوه . . ياخراب بيتنا يا مصيبتنا .

استدرنا خارجين دون أن يتفوه أحدنا بكلمة . . فى الخارج رأينا الأم ، وظهرها لنا ، تضع رأسها على راحتها . قال المخبر يسأل المرأة المولولة :

– أنت أختها .

– أختها .

– اسمك ؟

ردت بالصوت الباكى :

– نادية . . أنا متزوجة وأسكن فى شبرا . . لكنى فى زيارتهم .

– قلت إن أمينة عند خالتها من يومين .

واستدار ليوجه لى نظرة ذات مغزى .

– من يومين . . هه ! طيب ! ممكن تتفضلوا معنا إلى القسم وقبلها ممكن نعرف بيت خالتها !

ردت بصوتها الباكى :

– حاضر . . أروح معكم عند خالتها .

وقالت لأختها عادت للجلوس فى الكشك .

– اقفلى الدكان ، واذهبى لأبيك . قولى له : تعال حالا أمينة أوقعتنا فى مصيبة .

ولم تكن الأم قد رفعت رأسها من على راحتها . . ملامح وجهها تدل على

أنها لاتحس بوجودنا . . أدخلتنا فى العالم الغريب الذى نفضت يدها عنه .

* * *

عدنا إلى الكشك من جديد بعد أن لطمت الخالة خديها وأنكرت كل معرفة لها بمكان أمينة . . وجاء رجل أسمر نحيف فى حدود الخامسة والخمسين ، يرتدى جلبابا مخططاً رخيصاً ، ووقف قبالتنا أمام الكشك وفى ملامحه ضراعة . . لم ننتبه لوجوده فى البداية . . حسبناه ضمن الناس الذين تجمعوا للفرجة . . تعلقت نادية بكتفه وأجهشت بالبكاء :

– أمينة جاءت لنا بمصيبة ياأبى . . سرقت من بيت البك ألف جنيه !

لم يعلق الرجل . . ظلت نظراته الضارعة عالقة بوجوهنا دون أن ينبس . . سأله المخبر :

– أنت أبوها .

قال وكأنه يقدم كلمة ويؤخر أخرى :

– نعم . . أبوها . . يا . . بك .

– وقعت يا حلو !

قال المخبر ذلك وهو يرسل لى نظرة من جانب عينه كأنه يقول لى : انتبه جيدا ، فأمامك عبقرية بوليسية لم يكتشفها أحد بعد ! . . ثم وضع يده فوق كتف الرجل وقال له فى هدوء بارد كنصل السكين :

– ليكن فى علمك . إذا لم تحضر البنت من تحت الأرض فى ظرف ساعة فستذهبون جميعاً فى داهية .

ومد سبابته إلى صدرى وحولها إلى صدر عباس وأضاف :

– البكوات من كبار المسئولين فى البلد . . ممكن جدًّا يقلبوا علينا الدنيا كلها !

تنبهت إلى أن مدحت غير موجود . . تلفت يمنة ويسرة فلم أجده . . سألت (عباس) فقال فى نبرة اعتذار :

– مشى . . معه موعد مهم ومشى . . أعصابه تعبت لما أمسكت المرأة فى خناقه .

وسمعت المخبر يقول للرجل وهو يهزه من كتفه :

– أنا أنذرتك وأنت حر ! فأنا بطبيعتى أحب الحلول السلمية . . لكن إذا كان الذوق لم ينفع فأنت عارف بما يمكن أن يحصل !

العرق يغطى وجه الرجل وينحدر فى الأخاديد المسودة إلى أسفل . . يتجمع فى نقاط صغيرة أسفل ذقنه ويتساقط على صدره . . لم يكن يتكلم . . يفتح فمه ويغلقه وتصدر عنه أصوات واهية غير مفهومة . . فقط تعطى الإحساس بأنه مستعد لأن يحثو على ركبتيه إذا طلب منه ذلك .

طوال الوقت كانت نادية تضع يدها على رأسها وتردد بصوت مبحوح :

– يا خراب بيتنا يا مصيبتنا ، عملنا إيه يارب !

بنتها الصغيرة بشعرها المهوش تتعلق بثوبها باكية ، وطفلها بجلبابه ذى الخطوط البدائية الحمراء يشد ثوبها كأنه يطلب منها الذهاب ويتطلع إلينا فى دهشة . . على حين ظلت الأم – ورأسها على راحتها – تعتبرنا جزءا من العالم الخارجى غير المفهوم .

* * *

٩

قال لى مدحت بانفعال :

– أنت أخطأت فى موقفك . . المفروض أن تترك المخبر يأخذهم جميعاً إلى قسم البوليس . . هناك فقط يمكن أن يدلوك على مكان البنت .

– لكن . .

– لا لكن ولا يحزنون ! أنت شخصية ضعيفة ولا مؤاخذة . . هؤلاء الناس لا ينفع معهم إلا الضغط . . من كان يصدق مثلاً أن أمينة بنت لبؤة ؟ . . كانت توهمنا أنها حرة وها قد ثبت أنها بنت لبؤة ! كان المفروض أن أنتبه من البداية . . فالبنت التى أحضرتها إلى معروف عنها أنها لبؤة . . ما معنى هذا ؟ . . الطيور على أشكالها تقع طبعاً !

كان مدحت يتكلم بانفعال شديد ، على حين كان (عباس) يريح رأسه على كفيه واضعاً مرفقيه على المائدة وقد ظهر عليه الهم . . لم يغير هذا الوضع إلا بعد أن استأذن مدحت فى الخروج . . رفع رأسه وقال لى بعينين محمرتين من تأثير المخدر :

– هل أبوح لك بسر خطير؟

– خيراً .

– فكرت فى يوم من الأيام أن أتزوج أمينة . . الخوف من كلام الناس هو الذى منعنى .

مرت فترة صمت قصيرة كان عباس خلالها يحدق فى وجهى مفتوح الفم . . مصدر دهشته أنه لم يرنى أدهش لهذا السر الذى وصفه بالخطير . . لم يكن يعرف أننى قرأت كراسة مذكراته ، ولم أكن فى حالة نفسية تمكننى من التظاهر بالدهشة .

رمش بعينيه رمشات سريعة قائلاً :

– واضح أنك لا تصدقنى .

لم تكن لى رغبة فى خوض أى حديث يخص الآخرين ، ولم أكن فى حالة تسمح لى بمجاملة أحد ، فلذت بالصمت .

دسّ كفه فى كفى وقال بصوت متهدج :

– وحق العيش والملح . . عزمت فى يوم من الأيام أن أتزوجها .

لم أرد . . تذكرت أن نقودى قد ضاعت ، وأنه ليس بجيبى غير ثلاثة جنيهات والشهر ما زال فى منتصفه ، ولا أقارب لى أو أصدقاء بالقاهرة ، والسفر إلى الإسكندرية الآن معناه تأجيل البحث عن النقود ؛ مما يعنى ضياعها نهائيًا ، ولا أعتقد أن « عباس » أو مدحت يستطيعان إسعافى بشىء ، فلم أكلف نفسى عناء الرد .

حدق عباس فى وجهى قليلاً ، ثم قام وذهب إلى حجرته . . طالعتنى فى الصالة صورة مدحت بشاربها الصغير ، ورباط عنقها الفاقع ، فتملكتنى رغبة فى تحطيمها ، لكننى وجدت أن الأمر لا يستحق .

عاد عباس يحمل فى يده ورقة شفافة ، فتحها ، وتناول سيجارتين من علبتى ، ومضى يفرغ ما فيها من دخان . . ثم تنهد طويلاً وقال لى :

– خلّيها على الله .

فتح الباب ودخل مدحت ووراءه صبى الكواء يحمل لفافات بها (كبدة) وفاكهة وثلاث زجاجات بيرة . . أمر الغلام أن يضعها على المائدة ويذهب .

ودخل عباس المطبخ لإحضار طبق ، فانتهز مدحت فرصة تواريه ودس فى جيب منامتى ظرفاً صغيراً . . أمسكت بيده متظاهراً بالرفض لكنه أصر قائلاً :

– أنا أخوك . . !

أكلنا فى شرفة عباس وشربنا البيرة ، وحين دخلت حجرتى متظاهراً بإحضار شىء ، وفتحت الظرف وجدت به عشرين جنيهاً ، فعدت إليهم وشربنا السجائر التى افتن عباس فى لفها ، وبدت لى الدنيا بهيجة . . وقلت لنفسى : إن الإنسان بصفة عامة يتقدم برغم غبائه ، وإن المشاكل العالمية ليست مستعصية على الحل ، وإنه من غير المعقول أن تكون أمينة الوديعة هى التى سرقت النقود ، وإن هناك حلقة مفقودة مطلوباً منى أن أعثر عليها ، وستحل قضية الشرق الأوسط إن آجلاً أو عاجلاً ، وسنبنى بلدنا وننشر الخضرة فى كل مكان ، وستعود سعاد وتعتذر لى عما بدر منها !

مع حلول المساء رق النسيم ، وطاب السهر ، وجاءنا المخبر ، فاحتفينا به ، وقال لنا : إنه قام بتحريات واسعة النطاق عرف منها أن أمينة تعشق شاباً من أبناء حى « بولاق » وأنها تقيم هناك ، وأن إحدى جاراتها رأتها ترتدى فستاناً حديثاً يصل إلى منتصف الفخذين ، لكنها عادت للتخفى لما عرفت أن البوليس يبحث عنها .

وعدل المخبر من وضع ياقة قميصه الأسود حول عنقه النحيل ، ومسح على صلعته وقال بلهجة الواثق :

– كل ما ينقصنى الآن هو تحديد البيت الذى تقيم فيه . . لكننى دبرت

خطة تقودنا إليها ولو كانت فى بلاد واق الواق !

وتنهد عباس بصوت مسموع .

* * *

كنت بالقرب من باب الشقة عندما سمعت صوت الجرس . . فتحت الباب لأجد أمامى رجلين . . أحدهما قصير ممتلئ الجسم ، يضع على رأسه طربوشاً ، ويرتدى جلباباً من الصوف الرمادى ذى القصب الذى يدور حول العنق . . لباس أعيان الفلاحين . . والآخر يرتدى جلباباً رخيصاً وعلى رأسه طاقية من الصوف البنى .

– أى خدمة ؟

لم يرد القصير المطربش . . دفع بعصاه العاجية المقبض أمامه ، واندفع إلى الداخل وهو يقول للآخر :

– كما قلت لك . . المسألة مسألة وقت ليس إلا !

وجلس فى الصالة بعد أن وضع عصاه فوق المائدة على حين صافحنى الآخر وقال لى فى نبرة اعتذار :

– مدحت هنا يا أستاذ ؟

– نعم .

– هذا عمه ، وأنا قريبه .

– أهلاً وسهلاً .

وكنت أريد أن أقول : « تفضلوا » لكننى عدلت بعد أن كان « العم » قد « تفضل » فعلاً .

وجاء مدحت وعباس من الداخل . . هجم عباس على الرجل المطربش

وعانقه بحرارة وسلم على الآخر ، وأحضر بضعة مقاعد من حجرته ومضى يرحب بهما . . على حين سحب مدحت مقعداً ، وجلس بعيداً عنهما بعد أن سلم بأطراف أصابعه وكسا وجهه بتقطيبة تهدد بالانفجار .

نقر المطربش على المائدة قليلاً وقال بهدوء :

– كل شيء له نظام يا أستاذ مدحت ، وكل وقت له أذان .

انفجر مدحت دفعة واحدة . . مد ذراعه على طولها فى وجه الرجل وصرخ فيه :

– أقسم بالله العظيم . . ما أنزل عن حقى إطلاقاً . . أنتم جميعا اتفقتم ضدى لكننى سأؤدبكم واحداً واحداً .

أدار العم عنقه ناحيتى وقال بهدوء :

– صل على النبى يا أستاذ .

– اللهم صل عليه .

– افرض أننى عمك ، وظروفى المالية لا تسمح بكل طلباتك . . هل تفضحنى ؟

صرخ فيه مدحت :

– اسمع . . أنا لا أحب كلام المصاطب . . فلوسى تدفع لى على دائر المليم ، وإلا فإننى سأبيع لغيرك .

– ولماذا تبيع لغيرى يا مدحت ؟ . . هل يرضيك أن أمشى فى البلد ، والناس تشير ناحيتى وتقول : « أرضهم اشتراها الغرباء ، وهو عامل نفسه زعيم » ؟ ! . . يرضيك يا مدحت ؟

ضرب مدحت ركبته صارخاً :

– يرضينى .

صمت العم . . وجاء عباس لهم بالشاى فقال لى العم :

– والله العظيم يا أستاذ . . والله العظيم . . الضرائب التى ندفعها للحكومة على الأرض فى هذه السنوات العكرة ، لا حصر لها ! كأننا نزرع أرضنا بالإيجار . . مدحت لا يحس بما نحن فيه ، مع أنه وحيد أبويه ، وورث عشرة أفدنة مثلما ورثت أنا تماماً . . لكن أنا عندى ثلاثة أولاد وبنات فى الجامعة . . هل أستطيع أن أشترى عشرة أفدنة دفعة واحدة ؟

قال مدحت بصوت أقرب إلى البكاء :

– أنا واقع فى مأزق حرج يا عمى . . لن يخلصنى منه غير بيع أرضى كلها .

– أنت تردد « مأزق حرج . . مأزق حرج » . . ما هذا المأزق الحرج ؟

– سر أحتفظ به لنفسى !

– سر على عمك ؟

– على نفسى أيضاً !

– طيب . . مستعد أعطيك مبلغاً ، تصرف به أمورك إلى أن يحلها ربنا .

– لا . . والمبلغ كله أو أبيع لغيركم .

– يا مدحت عيب . . أنت موظف ولك مرتب تصرفه كل شهر ، ولك إيراد منتظم يصلك . . انظر إلى عباس المسكين الذى لا يأتيه غير خمسين جنيها فى السنة كلها فوق مرتبه لدرجة أنه أضرب حتى عن الزواج .

– قلتها كلمة ! المبلغ كله أو البيع لغيركم !

– يرضيك ؟

– يرضينى . . اجمع أخواتك وأولاد عمك وأولاد أخواتك وتفاهموا

مع بعضكم . معكم مهلة عشرة أيام !

وضحك الرجل ذو الطاقية البنية وقال :

– تفاهموا فى هدوء . . والصبر طيب .

صرخ فيه مدحت :

– صبرى نفد ، ولا تتدخل أنت من فضلك !

شرب العم الشاى على عجل وقام . . قال وهو يخطو إلى الخارج :

– الكعبة لها رب يحميها .

* * *

١٠

قضينا ثلاثة أيام ونحن نطبق على الطبيعة الخطة التى رسمها المخبر . . .

وفى البداية تخيلت أننى سأرى خطة مثل تلك الخطط العجيبة التى نشاهدها فى الأفلام البوليسية . . حتى إننى توقعت أن يحضر لى المخبر فى صباح اليوم الأول وهو يرتدى قبعة تميل إلى الأمام فتغطى نصف وجهه ، ويضع على عينيه نظارة سوداء ، ويكسو يديه بقفازين ، ويلبس حذاء جلديا طويلا يصل إلى ركبتيه ، وفى يده جهاز يسجل الأصوات ويلتقط الصور .

وفوجئت بأن (الخطة) لم تكن تزيد على أن نجلس فى مقهى صغير قريب من الكشك فى النهار ، وأن نجلس فى المساء على عدة أجولة من الخيش مفروشة بجوار الكشك ! . .

كان المبنى المجاور للكشك – وهو مشروع مسجد صغير– يلقى بظله على مستطيل ، تفرش به بعض الأجولة الفارغة ليلاً ، ويجلس عليها عدد غير قليل من سيدات الحارة وأطفالها ، وأحياناً ينضم إليهم بعض الرجال كبار السن ، يثرثرون فى شتى الأمور .

كان من رأى المخبر أن « جهنمية » الخطة إنما هى فى أنها تتيح لنا أن نجلس بينهم متخفين فى الظلام الدامس لنترك لهم فرصة الثرثرة حول موضوع أمينة الذى يشغل الحارة ، ومن هنا نستطيع أن نستدل على مكانها .

فى البداية هدد الأم ونادية والصبية التى تجلس فى الكشك – بأنهم جميعاً

سيذهبون فى دهاية لو أطلعوا أحداً على شخصياتنا . . وقال لى : إن « الخطة » ناجحة جدًّا . . فحتى لواستطاع أحد المثرثرين أن يتعرف علينا أو يشك فينا ، بعد أن تعتاد عيناه الظلام – فإنه سيكون قد ثرثر بشىء ماقبل ذلك .

عباس ضاق بالأمر كله وتركنا فى اليوم الثانى ، أما مدحت فقد امتنع عن المجىء خوفاً من الأم .

وتوطدت الصداقة بينى وبين المخبر ، فروى لى قصة حياته ثلاث مرات خلال يومين . . وكان فى كل مرة يضيف إليهاأشياء ويحذف منها أشياء ، ويصمم فى النهاية على أنها تصلح للسينما لكثرة ما فيها من « مواعظ » !

ولم نخرج بأى معلومات جديدة عن المكان الذى تقيم فيه أمينة . . كل ما خرجنا به هو أن الأب يعمل عند أحد « المقاولين » ويخرج إلى عمله فى الصباح ولا يعود إلا عند منتصف الليل . . وأن أمينة كانت تعمل فى أحد المصانع ، واتهمت فى واقعة سرقة ، ولم تثبت عليها التهمة ، لكنها طردت من المصنع ، فاضطرت للعمل عند مدحت . . وأن نادية طلقت من زوجها حديثاً ، وجاءت لتقيم بطفليها مع أهلها بصفة دائمة ، وليس للزيارة كما زعمت لنا . . وحين سألها المخبر عن سبب الطلاق ، تنهدت وقالت بصوتها المبحوح :

– « رضينا بالغلب ، والغلب لم راضى ! »

وعرفنا منها أن ضيق المعيشة هو السبب ، وأنه يكبرها بثلاثين عاماً .

فى اليوم الثالث استقبلتنا نادية أمام الكشك وفى يدها حقيبة جلدية كبيرة بها ثلاثة ثياب للأم ، وثلاثة لها وثلاثة ثياب لكل من أختها الصغرى وطفليها ، وأبيها !

كانت الثياب جميلة ، وتنم عن ذوق رفيع ، وخارجة لتوها من عند

الحائك ، ومازالت خيوطه الرفيعة عالقة بها .

قالت لنا نادية إن أمينة جاءت فى الصباح الباكر بسيارة أجرة ، وأنزلت الحقيبة فى رأس الحارة ، وطلبت من إحدى الجارات أن توصلها لنا ، ثم اختفت السيارة بها .

روت لنا ذلك فى أنفة وعزة ، واكتشفت أن لون عينيها يتغير بتغير الضوء وأنها لا تقل جمالاً عن أمينة لولا هزالها .

ووضع المخبر سبابته اليسرى فوق حاجبه الأيسر ، وأرسل لى نظرة جانبية مركزة ، كأنه يقول لى : انظر إلى سبابتى وهى تشير إلى منبع العبقرية التى أوصلتنا إلى هذه النتائج .

حركته هذه لم تعجب نادية . . كشرت عن أنيابها – لأول مرة منذ رأيتها – ولمعت عيناها وقالت له فى حدة :

– نحن أشرف من أشرف بنى آدم ، وكل واحد يحفظ لسانه !

واهتز المخبر . . انحنى لا شعورياً أمام العينين الجميلتين المتنمرتين ، وأحست أنه يتملقها بنظراته .

* * *

ونحن قابعون فى الظلام جاء « سيد » شقيق أمينة . . لست أدرى من أين جاء ؟ ولم أكن أعرف أن لها شقيقاً . . شاب طويل نحيف حاد التقاطيع ضيق العينين ، فوق العشرين بقليل . . بوجهه وعنقه آثار ندوب وخدوش يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً أسود . . عرفت – وببساطة – أنه قضى مدة بالسجن ، لضربه شخصاً بمطواة ، وخرج فى عفو عام ، بعد أن قضى نصف المدة ، وأنه يعيش بعيداً عن عائلته ، ولا تعرف له عنواناً ، وأنه جاء بالمصادفة البحتة ،

وعرف الخبر من أهل الحارة .

كان عصبياً فى حركاته . . تارة يحملق فينا بكراهية شديدة ، وتارة ينفخ ، ويشتم نادية وأمها وأباها لأن أمينة تعمل خادمة فى بيت وليس فى مصنع كما يزعمون له ؟ وكلما حاولت نادية الدفاع عن نفسها زأر فيها بوحشية ، فيظهر عليها الهلع وتبتلع نصف كلماتها .

وحينما أسمعه المخبر « موشحه » عن مقدرته على أن يضع العائلة كلها فى السجن وأن النقود المسروقة تخص شخصيات لها خطورتها فى البلد ، وأنه لن يقف مكتوف اليدين إن لم تظهر البنت — زام فينا قائلاً :

— سأحضرها ولو كانت فى أمريكا ، ولاداعى للكلام الزائد !

وسكتنا ولا سيما بعد أن عرفنا أن هذه هى المرة الثالثة التى يضرب فيها « سيد » شخصاً بمطواة .

* * *

غصت أجولة الخيش بالنساء والأطفال ، وتشعبت الأحاديث ، وروى لنا المخبر طرفاً من مغامراته ، ناسياً أن التخفى فى الظلام هو كل مافى خطته المركبة !

وغص الشارع الكبير القريب بعربات الكارو تجرها الحمير والخيل الهزيلة ، وركابها عائدون إلى بيوتهم ، وبدأت عربات الفول ، بقدورها التاريخية تنسحب فى زحام شديد ، وألوانها المتباينة تتتابع كعربات قطار البضاعة .

عرفنا الكثير — وببساطة شديدة — عن حياة المتجمعين ، وأدق أسرارهم ، بما فى ذلك أنهم جميعاً من الأسر التى لا يزيد دخلها عن عشرة جنيهات فى الشهر ، لكن هناك مايشبه الإجماع على أن الأيام القادمة ستكون أفضل ، وأن فرج الله قريب .

ثمة شخصان لم يكونا معنا . . سيد الذى يتركنا بمعدل مرة كل نصف ساعة ، ويدور على بيوت الأقارب والأصدقاء ، ربما يجد من يدله على مكان أمينة ثم يعود مقهوراً ، فيجلس فى صمت يجذب الأنفاس العميقة من سجائره ، ولا يفتح فمه إلا إذا شتم نادية ، أو نهر أحد الطفلين ؛ والأم التى تجلس متربعة وحدها فى الجانب الآخر من الكشك ، دون أن تحول رأسها عن راحتها ، كأنها تزيد المسافة بينها وبين هذا العالم غير المفهوم .

* * *

لم أحس به حين جلس بجوارنا فى الظلام . . رجل قمىء فى حدود الأربعين يرتدى معطفاً أصفر ذا جيوب كبيرة من تلك التى يرتديها المقاولون فوق جلباب من الحرير . . سمعته يقول : إنه يعرف المكان الذى تقيم فيه أمينة . . قال ذلك بلهجة بطيئة أحسست معها أنه جاء للمساومة على شىء ما .

لم يرد بسرعة عندما هبت نادية وسيد وسألاه فى لهفة عن مكانها . . تجاهلها تماماً والتفت إلى المخبر ، وكان يجاوره من ناحية ، ولايوجد رجال غيره — باستثنائى أنا و «سيد» — من ناحية ، وقال له بلهجة بطيئة واثقة : إنه تحمل الكثير من الإساءات وإنه غير مستعد لتحمل أى إساءة جديدة هذه المرة ، وإنه مستعد أن يغفر ويسامح ويفتح صفحة جديدة ، ومستعد أيضا أن يتغاضى عن إبلاغ البوليس عن مكانها لو أنهم عاملوه بما يجب من احترام .

صاح المخبر فى سيد ونادية بصوت عال يأمرهما بالجلوس لما رآهما يلحان على الرجل أن يخبرهما بمكان أمينة . . صيحة قوية مشحونة بالخبرة ، نبراتها تهدد بعاقبة البوح بشخصيته .

عمّ الصمت ، وربت المخبر كتف الرجل وقدم له نفسه على أنه من أعز

أصدقاء العائلة ، وعلى أتم الاستعداد لإجابة كل مطالبه نيابة عنها ، ووصفه بأنه من أصل طيب .

واهتز الرجل للشهامة التى قوبل بها من جانب المخبر ، وفهمنا منه ، بعد ثرثرة طويلة ، وتوريات لاحد لها – أنه سبق له أن تقدم لطلب يد أمينة لأخيه ، ورفضته بحجة أن أخاه متزوج وله ثلاثة أطفال ، ولم تحرك الأسرة ساكناً فى الضغط على أمينة ، مع علمها بمركز أخيه الذى يعمل « مقاولاً » فى أعمال السباكة المعمارية ، مفضلة عليه شاباً متشرداً فى بولاق يعمل فى أعمال غير ثابتة . . واختتم حديثه بأنه غير مستعد هذه المرة لرفض جديد .

وهب سيد واقفاً ، وشده من كتفه فى عنف حتى أوقفه ، وقال له بصوت عال جريح :

– دلنى عليها حالاً ، وأنا أنفذ لك كل طلباتك .

وقف الرجل وهو يلهث من الانفعال . . وضجت النساء والأطفال بلغط لاحد له . . وتطور الأمر بسرعة غريبة . . وخرجنا إلى الشارع الكبير وقد تجمع حولنا حشد من الناس . . وأوقف سيد عربة أجرة ، بالرغم عن سائقها ، وفتح الباب ، ودفع صاحب المعطف إلى داخلها فى عنف ، وركب بجواره وقال لنا :

– اركبوا بسرعة .

شدنى المخبر من يدى ، ووقف بى بجوار جدار يبعد عن الحشد وهمس لى :

– إلاّ بولاق .

– لا أفهم .

– أنا مستعد أذهب معك إلى أى مكان . . إلاّ بولاق !

– السبب ؟

– إلاّ بولاق !

لم أكن أعرف شيئاً عن بولاق ، إلا أنه الحى الذى تزعم ثورة القاهرة الثانية ضد الحملة الفرنسية .

– قل لى عن السبب ؟

– تحصل مشاكل لاحصر لها .

وجاء سيد يسألنا عن سبب تخلفنا ، فقال له المخبر إن ذهابنا بهذه الطريقة إلى بولاق واعتقالنا لفتاة فى مظاهرة – سيثير ثائرة الحى الشعبى ، وستكون العواقب وخيمة . . وأقترح أن نفكر فى طريقة جديدة نذهب بها إلى هناك غير هذه الطريقة التى وصفها بأنها همجية .

كور سيد قبضته ، وضرب بها الجدار المقابل فى عنف ، كأنه جن ، وصرخ فى المخبر صرخة عالية مرعبة :

– اركب . فركب !

* * *

دخلنا أزقة بولاق الطويلة والقصيرة والمقوسة واللولبية والدائرية . . وخيل لى أننا تهنا فيها ، فتذكرت تحذير المخبر . . ولمعت فى ذهنى فكرة أن الأمر لايعدو أن يكون مؤامرة لاستدراجنا إلى « علقة » رائعة .

غاب عنا صاحب المعطف دقائق ، وعاد ومعه أربعة شبان أقوياء يرتدون البنطلونات الكاكية ، وقال لنا : إنه اتصل – بطرقه الخاصة – بالمكان الذى تقيم فيه أمينة فعرف أنها ذهبت لقضاء شأن ما ، وستعود بعد قليل . . ورسم لنا « خطة » جديدة فحواها أن نجلس على ثلاثة مقاهٍ حددها لنا لمراقبة الطرق التى يتوقع أن تمر منها عند عودتها : جلست أنا والمخبر فى مقهى ، وجلس صاحب

المعطف ومعه اثنان من رجاله فى مقهى ، وجلس سيد ومعه اثنان فى مقهى .

كان المقهى الذى جلسنا عليه أنا والمخبر على ناصية أحد الأزقة ، بحيث لم نكن نرى من مجلسنا المقهيين الآخرين . . واخترنا مقعدين أمام المقهى ، احتلا – مع المائدة – ثلث الزقاق بالضبط .

فى أثناء شرب الشاى قلت لنفسى : أمينة بها جانب إنسانى عظيم ، لم تنس أهلها فى سعادتها ، فأرسلت لهم شيئاً من « فضل الله » . . هى أحسن منك ومن مدحت ومن عباس ! فنحن نأخذ من أهلنا ولانعطى ! وعلى أى حال فإن اكتشاف السرقة أخرجك من حالة البؤس التى تملكتك بعد صدمة سعاد ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

كانت الأزقة على ضيقها تغص بالسابلة وبمختلف الأزياء . . الجلباب والبنطلون الشارلستون والملاءة اللف والفساتين فوق الركبة . . وفوجئت بالمخبر قلقاً فى جلسته فسألته :

– مالك ؟

وضع كوب الشاى على المائدة ، ورمشت عيناه الضيقتان :

– اسمع . . سيد يجب أن يكون قريباً منا .

– لماذا ؟

– ربما مرت البنت من هنا .

– فى هذه الحالة سنرسل فى طلب سيد .

– لا . . سيد يجب أن يكون بجوارنا .

– السبب ؟

– ربما مرت البنت من هنا !

– قلت لك فى هذه الحالة سنرسل فى طلب سيد .

– لا ، ويجب أن يحضر من الآن .

– وكيف عرفت أنها ستمر من هنا ؟ . . لِمَ لا تمر من الزقاق الذى يجلس فيه سيد ؟

– احتياطيات .

نطق كلمة « احتياطيات » بطريقة خاصة تشعرك أنك أمام أحد العالمين ببواطن الأمور .

– أنت خائف ؟

– أنا لا أخاف أحداً . . لكن لا تنس أنك فى بولاق .

أغاظنى طريقته فى نطق اسم الحى . . قلت له فى انفعال :

– ومابولاق ؟

– لا تتصور ما يمكن أن يعملوه فينا لو رأونا نمسك امرأة من عرض الطريق !

– لكننى أبحث عن حتى .

– أهل بولاق ناس جدعان .

انفعلت أكثر . . انفجرت فيه :

– أنا من مواليد « الأنفوشى » . . فى الوقت المناسب أخلع القميص والفانلة ، وأقف بالبنطلون ، وأسحب المطواة ، وأضرب بالروسية ، وأحياناً أشخر !

حدق فى وجهى بدهشة شديدة ، وشرعت شفتاه فى الاستعداد لبسمة ساخرة . . أنا فى نظره شاب نحيل صحتى متوسطة ، أطالب بوقف إطلاق

النار ، بعد أول لكمة .

بسط يده على المائدة وقال لى فى مجاملة رقيقة :

– أنت على العين والرأس . . وبصراحة واضح جدا أنك رجل جدع وتأكل عشرة !

ثم هب واقفاً وهو يقول فى خشونة ويتجه إلى الزقاق المجاور :

– لكن بعد إذنك أنادى «سيد» !

أدرت رأسى ناحية اليمين أحدق فى ظهره الذى ينحنى أعلاه قليلاً إلى الأمام وبقعة ماء – أوربما زيت – تلوث إحدى كتفى قميصه الأزرق ، وهو يختفى فى الزقاق الأيمن .

أدرت عنقى ناحية اليسار لأجد أمامى « أمينة » وجهاً لوجه . . فى البداية خيل لى أننى أحلم . . ترتدى فستاناً سماوياً رائعاً ، وتعقص شعرها فى شكل وردة مقلوبة وفى يدها حقيبة أنيقة فى لون الفستان .

لم أعرفها لأول وهلة . . بدت وقوراً وفاتنة أكثر مما يجب ، فتوقفت عيناى على وجهها طويلاً أستمتع بالوجه الفاتن دون أن يخطر ببالى – فى البداية – أنها أمينة ! بعد ثوان ربما زادت على العشر قلت لنفسى أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟ ثم دوى فى رأسى الصوت الضخم . . أمينة . . أمينة .

كنت أتخيل – عند جلوسى على المقهى – أننى سأهجم عليها لحظة أن أراها ، وألوى ذراعها ، وأصرخ : « اللصة . . اللصة » لكن الذى حدث هو أننى وقفت بالطريقة نفسها التى أقف بها عند رؤيتى لصديق عزيز لم أره منذ زمن !

تقدمت نصف خطوة أعترض طريقها – ولم تكن قد رأتنى بعد – وأنا أمد

لها يدى بود حقيقى :

– إزيك ياأمينة !

مهما نسيت من مواقف وأزمات وأفراح ولحظات سعادة ولحظات شقاء – فلن أنسى ما حييت ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهها لحظة أن وقع بصرها على ويدى ممدودة وأنا أقول فى لهفة حقيقية :

– إزيك يا أمينة !

لم تهتز أو تنزعج أويبد عليها أقل اضطراب . . ابتسمت تلك الابتسامة التى لم أر مثل مرارتها ، لكنها هذه المرة ممزوجة بشحنة هائلة من العتاب . . أسبلت أهداب عينيها ورفعتها قائلة فى عتاب :

– كنت تأخرت . . ولو ساعة !

قالت ذلك بصوت خافت جداً وضعيف ومرهق وبمرارة إنسان يعاتب إنساناً عزيزاً عليه . . ولم أفهم معنى ما قالته إلا فيما بعد ، وإن كنت قد أحسست به . . وللحظة تملكنى شعور بالذنب لأننى أفسدت شيئاً ما كانت تدبره ، وكان يجب أن أؤجل حضورى . . لكننى تمالكت نفسى سريعاً ، وتذكرت أن نقودى قد ضاعت ، وأننى أمام اللصة التى سرقتها !

– تعالى ورائى .

ألقيت ببضعة قروش فى صينية الشاى ، وسرت أمامها بمقدار نصف خطوة ، وسارت بجانبى فى هدوء مستسلم دون أن تنبس . . الناس يسيرون – فيما يشبه الزحام – عن يميننا ويسارنا ونحن نتدافع معاً بالمناكب دون أن نسترعى نظرهم . . فقط تظهر لمعة خفيفة فى عيون الرجال كلما وقعت أنظارهم على وجه أمينة . . لمعة مندهشة متملقة ومحبة ، لكنها سرعان ما تختفى طبقاً للقانون غير

المكتوب ، لأنها تسير بجوار رجل . . وتفاديت من شخص كدنا نصطدم معاً فوقعت عيني على وجهها . . كان رقيقاً وهادئاً وإن شملته مسحة من الهم !

فى نهاية الزقاق التقينا بالمخبر قادماً نحونا ومعه (سيد) . . كانا يختلفان فيما بينهما على مجيء سيد . . سيد نفسه غير راض عن ترك مكانه ، لأن رفقاءه لا يعرفون أمينة بالنظر . . حين اقترب منا ووقع بصره على وجه أمينة ، وثب نحوها وثبة عظيمة ودار عليها بذراعيه ، كأنه اكتشفها مصادفة تسير بجوارى فى الطريق . .وأطلق صيحة عالية – كمن أصابه مس – وقال لها يا بنت الكلب ! وفى لمح البصر تجمع حولنا العشرات . . كلهم يزمجرون حولنا ونحن نسرع الخطى ؛ لنصل إلى « شارع ٢٦ يوليو » . . فوجئت بصاحب المعطف – الذى جاء هو ورجاله – يغفر فاه فى بلاهة ، ويتوه ويضيع هو ورجاله فى الزحام . . المخبر انكمش فى نهاية الزحام لاينبس ببنت شفة لكيلا يكتشف أحد أنه معنا ! . . رجل أعور طويل يرتدى جلباباً أبيض بياقة متهدلة ، يزمجر ويحرض المتجمهرين علينا ، ويردد : « الشرف غالى ياجدعان . . الشرف غالى » دون أن يعرف عنا أو عنها أى شيء !

كان طويل العنق ، رفيعه ، كالديك العجوز منحول الشعر . . صرخ فى وجهى قائلاً ، وعينه الوحيدة تبرق :

– إن لم تتركها وتذهب فوراً أشرّحك ! .

ركبتنى روح التحدى . . تذكرت موقفاً مماثلاً فى « الأنفوشى » عندما كنت فى الثامنة عشرة ، وغازل أحدهم فتاتى . . تحديت الرجل الأعور ، ودفعته بعيدا عنى ، واقتربت من « سيد » أساعده فى الإمساك بأمينة ولا سيما أننى رأيت الكثيرين يدورون حوله ، ويزمجرون فى وجهه ، مهددين بذبحه إن لم يتركها !

فجأة رأيت نفسى مشدوداً إلى الخلف فى قسوة . . حتى بعدت عن أمينة وسيد قرابة ثلاثة أمتار . . صحت فيمن شدنى بأننى رجل مهم جداً فى الدولة : وأننى سأقلب الدنيا كلها فوق رءوسهم (فيما بعد طبعاً !) ، ولكنه لم يعرنى انتباهاً . . وتقدم منى رجل قصير منكوش الشعر وربت كتفى قائلاً فى ود : « سعادتك تكون مطمئناً جدا ، وأنا سأخلص لك موضوعك » ، ثم أدخل يده فى جيبى ، ولما لم يخرج معه غير المنديل ، رماه أمامه فى تأفف ، وحدجنى بنظرة احتقار وابتعد !

كان سيد يدور على أمينة بذراع ويدفع من حوله بالذراع الأخرى . . صياحه أعلى من صياحهم وتحديه لهم يفوق تحديهم له . . لم تستطع كثرة الأيدى الممدودة حوله أن تفلتها منه . . كلما نجح أحدهم فى إفلاتها قفز ودفعه بعيداً ، ودار عليها بذراعه وهو يصرخ : « أختى وأنا حرّ فيها » . .

أمينة لم تكن تفعل شيئاً غير البكاء والاستسلام التام لذراع أخيها . . بل كانت تدور بذراعها حول كتفه لتساعده فى الإمساك بها . . صاحب المعطف ورجاله والمخبر — لم أر منهم أحداً عليم الله . . صياح يصم الآذان (وشارع ٢٦ يوليو) لا يريد أن يظهر . . وبدأ التردد على الكثيرين حين رأوا تصميم سيد . . كلمة « أختى » جعلت بعضهم يشك فى الأمر ويتوقف . . تنبهت إلى شاب وسيم يرتدى قميصاً أحمر ، وينطلون رعاة البقر ، يدافع عن سيد ويمنع الآخرين عن الاقتراب منه ويلصق ظهره بأمينة . . خمنت أنه قريبها أو ربما صديق سيد جاءت به المصادفة .

تكاثر عدد الواقفين على الحياد ، وظهر المخبر . . سمعته يخاطب رجلاً طويلاً عليه قميص أسود عرفت أنه « مخبر » من أبناء الحىّ . . قال له : أنا مخبر ومعى

البك . . نطق كلمة « البك » وهو يشير ناحيتى . . سرت همهمة فى الجموع بأننى ضابط بوليس . . وتوقف الكثيرون عن مهاجمة سيد ، وإن لم يمنعوا غيرهم من مهاجمته . . ولم يكف الرجل الأعور ، بعنقه الطويل الرفيع — من شن الهجمات ، والتحريض علينا بحماسة غريبة . . وتقدم منى شابان أنيقان مدّا لى بطاقتيهما الشخصية وقال لى أحدهما :

— نحن طلبة فى الجامعة . . خذ البطاقات ، سندافع معك عن البنت .

ودارا فعلاً حول سيد . . وهرول أحدهما إلى شارع ٢٦ يوليو ، الذى اقترب منا ، واعترضا طريق سيارة أجرة ، وصاحا بنا : « اركبوا » فاندفعنا نحوها . . لكن الرجل الأعور قاد هجوماً ناجحاً ، بجناح من رجاله ، وهاجموا سائق العربة صائحين وهم يدقون على سقفها فى عنف : « امشى يا حمار » فلاذ بالفرار !

هجم الشاب الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر ، وأمسك بالرجل الأعور من ياقته الخلفية ، وشده إليه ، ثم دفعه بعيداً فى عنف ، والآخر يتطوح ويردد كلمة « الشرف » . . وصرخ المخبر الطويل وطلب من كل واحد أن يذهب « إلى حال سبيله » وإلا اضطر إلى طلب قوة من قسم البوليس ، فانضم إلينا عدد من الواقفين على الحياد . .

وفجأة ظهر صاحب المعطف ، ودار برجاله حول سيد وأمينة ، وأعلن على الملأ أنه يسيطر على الموقف تماماً ، وأنه مستعد لإراقة الدماء ! . . وقام الرجل الأعور بهجوم أخير ببقية فلوله ، وحاول أن يخترق حائط صاحب المعطف ليصل إلى القلب ، لكن قواته كانت أضعف من أن تصل . . ونجح أحد الطلبة فى إيقاف عربة أجرة جديدة ، فأركبنا أمينة بعد « معافرة » وركبنا معها أنا وسيد

وطلبنا من سائقها أن ينطلق بنا بأقصى سرعته . . ونجح الرجل الأعور فى سحب الذين يمسكون به ، وأدخل رأسه من نافذة السيارة ، وقال لى بصوت جريح مهزوم :

– معلهش . . لكن أنا وراك والزمن طويل !

* * *

١١

فتحت حقيبة أمينة ، ونحن فى السيارة ، فوجدت بها ثلثمائة وخمسة وستين جنيها وبضعة قروش . . وطلب منى سيد أن نذهب إلى بيتهم ، وأبدى استعداده لفعل أى شىء أطلبه منه ، وتهدج صوته وهو يقول : « استر علينا الله يستر عرضك » ولم أكن فى حاجة إلى طلبه .

حين وصلنا أمام الكشك تجمع حولنا الجيران ، فطلب سيد – فى غضب – أن يذهب كل إلى حاله ، فتفرقوا صامتين . . ورفعت الأم رأسها تنظر إلينا باستغراب دون أن تتحرك فى جلستها .

لم نجد شيئاً نجلس عليه فى الحجرة الداخلية فاضطررنا إلى الجلوس على الأجولة المفروشة ، بعد أن رفع « سيد » الطفلين النائمين ووضعهما فوق السرير المائل ، بجوار طفل رضيع نائم .

ووقفت فوق العتبة الفاصلة بين الحجرتين – الصبية التى تجلس فى الكشك ، تنظر إلينا بعينين دهشتين ، وتنظر إلى أمينة المنكمشة فى ذلة باستغراب !

ودخلت علينا الأم تلهث لبدانتها . . تقدمت من أمينة ، وألقت بنفسها فوقها ، ودارت عليها بيديها وضمتها فى قوة ، كأنها تريد أن تدخلها فى بطنها من جديد ! وأجهشت فى بكاء حار مؤلم وجسدها يهتز فى عنف ، ولا يفهم من كلماتها غير : « بنتى . . حبيبتى . . تعالى فى حضنى ! » .

مضت تحتضنها ، ثم تمسكها من كتفيها ، وتبعدها عنها ، وتنظر إليها بإمعان ، كأنها لا تصدق أنها هى ، ثم تعود لتحتضنها ، وتقول لها : لن نزوجك بالرغم عنك أبداً يا حبيبتى ، وليذهب « المعلم رشاد » إلى ألف داهية !

وفوجئت بها تستدير ، وتدور بيديها حول عنق وتقول باكية : « ربنا يخليك لأمك يا بنى . . هات راسك » . . فى هذه اللحظة دخل المخبر وصاحب المعطف والشاب الوسيم الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر . . وهبت الأم واقفة فى نشاط غريب ، وانحنت تمسك بأيديهم ، تحتضنها ، وتقبلها ، دون أن ينتبهوا ، وتردد وهى تَنْشِجُ : « هاتوا أيديكم . . أبوسها . . ربنا يخليلكم . . أمينة رجعت » .

وجاءت نادية . . وضعت إحدى يديها فوق رأسها ، ووقفت صامتة للحظات . . العينان الواسعتان تدوران فى الحجرة وألوان قوس قزح تتتالى عليها ، كأنوار النيون الملونة ، تلوح على البعد ، يطفأ لون ليظهر لون . تقدمت من أمينة ووقفت بجوارها . . فجأة رفعت يديها إلى أعلى وولولت قائلة إنها ستترك لها البلد والعالم كله ؛ بسبب المصائب المتتالية التى تجلبها عليهم ، وربما فكرت بسببها فى الانتحار ! عادت بعدها لتجلس بجوارها وتضع يدها على كتفها وتلصقها بصدرها قائلة بصوت باك : « إزيك يا أمينة ! » .

كانت أمينة تبكى فى صمت . . رأسها منكس ، وكتفاها متهدلان ، وحمرة خفيفة غزت سمرتها ، مع لمعة الدموع على وجنتيها ، فتغيرت تماماً . بدت فتاة أخرى مختلفة لها جمالها الخاص الذى يخالف جمال أمينة !

صرخ سيد فى أمه وأخته وطلب أن يخرجن من الحجرة ويذهبن جميعاً « فى داهية » ، فسارعن بالخروج .

اقترب من أمينة « يحقق » معها عما فعلته ببقية النقود فتملكتها رعشة دهشت لها . . وبعد لعثمة طويلة ، ونظرات خائفة ، قالت : إنها اشترت ملابس لنفسها ، ودوائر ذهبية ليديها ، وأطباقاً « صينية » وأشياء من هذا القبيل . . وعرفنا أن عقد القران كان مقرراً له بعد عودتها من الحلاق ، لكنها وجدته مزدحماً ، فذهبت تبحث عن آخر ، فكان لقاؤنا بها .

عرفت الآن معنى كلمتها المعاتبة : « كنت تأخرت . . ولو ساعة ! » فتمنيت لو تأخرت .

* * *

التفت سيد إلى الشاب الذى يرتدى بنطلون رعاة البقر وصرخ فيه :

– تضحك على أختى يا جبان ؟

رد عليه الآخر مزمجراً :

– اخرس قطع لسانك !

ووقفا بسرعة غريبة ، وتلاكما فى عنف ، وتناطحا برأسيهما ، وولولت نادية وأختها فى الحجرة الخارجية ، واستيقظ الطفل الرضيع صارخاً ، وحُلنا بينهما . . واندفعت الأم إلى الحجرة واحتضنت الشاب الآخر وقالت لابنها فى انفعال :

– صلاح أحسن منك . . ابعد أنت وأبوك عنا . . صلاح أحسن منك .

تركزت نظراتنا على « صلاح » الذى شد معه الأم إلى ما بين الحجرتين ، وقال يخاطب نادية فى حرارة :

– والله العظيم . . والنعمة الشريفة . . أنا لا أعرف حاجة عن الفلوس المسروقة ، وأمينة أخذت منى تسعة وعشرين جنيها لتجهز نفسها .

ردت عليه نادية فى حماسة :

– أصدقك . . هى بنت حرام ، تضحك على الأبالسة !

ثم دخلت الحجرة ، تخوض فى زحامها ، لتحمل رضيعها الذى لم يكف عن الصراخ ، على حين انشغل صلاح فى مسح الدم عن شفتيه ، وراح سيد يتحسس حاجبه المتورم ويضغط على فكيه كأنه يطحن أسنانه !

كان صاحب المعطف الأصفر ، يوجه نظرات كارهة للأم ، ثم يستدير ينظر إلى سيد فى ضراعة كأنه يستنجده . . وأحس سيد بنظراته ، فالتفت إلى صلاح وقال له فى غيظ :

– وافرض أنك لا تعرف . . فكيف تتزوج أختى من غير علم أهلها ؟ . . هى مقطوعة ؟

أجاب صلاح :

– هو الحل الوحيد .

وقف سيد صارخاً :

– حل وحيد يا جبان ! بعيد عن شنبك !

ووقفا من جديد ، لكنا حلنا بينهما قبل أن يتماسكا ، وجلس كلاهما يلعق جراحه . . وقال صاحب المعطف لسيد :

– أنت عند كلمتك يا سيد .

رد عليه فى قوة :

– طبعاً . . أنا أعطيتك كلمة رجال .

ثم التفت ناحيتى وقال فى انفعال :

– على العموم . . الأمر فى يدك . . أى شىء تريده أنا مستعد لتنفذه . هنا

تنحنح المخبر وقال ببطء وهو يقلب يديه وينظر إليهما :

– طبعاً القسم . . لابد . . يعرف . . ما حصل .

التفت إليه سيد فى حدة ، وبغيظ ، دون أن يقول شيئاً . . ثم أدار عنقه وراح يحدق فى وجهى .

اقتربت نادية ، وطفلها الرضيع على صدرها ، ووقفت بين الحجرتين ، تسلط على وجهى نظرة مستطلعة مكتومة الأنفاس . . صلاح التفت ناحيتى ثم أدار عنقه بسرعة وطأطأ رأسه ، وانشغل فى مسح الدم عن شفتيه . .

استيقظ الطفل الكبير ، فوق السرير ، وجلس بجلبابه ذى الخطوط البدائية ، يحملق فينا باستغراب ، فقلت للمخبر :

– لماعدت لتفتيش دولاب الملابس عثرت على النقود .

تنهد سيد بصوت مسموع ، وجلس صلاح على إحدى ركبتيه ، وقالت نادية وهى تتراجع بطفلها :

– روح يا شيخ . . إلاهى يريح قلبك كما ريحت قلبنا !

فتذكرت سعاد ، وعادت لى حالة البؤس التى كانت تلازمنى قبل اكتشاف السرقة . . وتمنيت لو لم أعثر على أمينة لأهرب فى البحث عنها من نفسى !

• • •

١٢

توقفت بى سيارة الأجرة أمام بيتنا . . كانت أمى تطل من النافذة حين رأتنى . . قالت لى : إنها كانت تصلى ، وفجأة هتف بها هاتف بأننى فى الطريق إليها ، فمدت عنقها من النافذة لترى العربة تدخل بى الشارع . . تعانقنا طويلاً وأسمعتنى الكلمات الطيبة التى لا يسمعها الإنسان إلا من أمه . . وعرفت منها كل أخبار « البلد » :

سعاد تزوجت وقضت مع عريسها بضعة أيام فى فندق « سيسل » . . سعاد بنت أم سعاد ، الشحاذة بنت الشحاذة – هكذا قالت أمى – أوصلها الزمن المعكوس إلى أن تقيم مع عريسها – الشحاذ هو الآخر – فى فندق الكبراء !

قضيت يومين بالإسكندرية راقداً فى الفراش . . لم أزر أحداً من الأصدقاء ولم يعلم أحد بوصولى غير جيراننا الأقربين ، وغير أختى التى جاءت بأطفالها من « محرم بك » لتعيد ما قالته أمى عن « أصل » سعاد . . حتى أخى لم أره إلا قبل مغادرتى الإسكندرية بساعة واحدة .

وفى القاهرة وجدت فى انتظارى حشية ووسادتين وبضعة ثياب نسائية ، بعضها سماوى ، والكثير من أوانى الطبخ الجديدة . . وقال لى عباس : إن شقيق أمينة ومعه شاب آخر – عرفت من مواصفاته أنه صلاح – جاءا بهذه الأشياء وذهبا . . وقال يدافع عن أمينة إنه يعتقد أنها لم تكن تنوى السرقة . . كومت الملابس على السرير لغسلها ويبدو أنها فتحت صوان الملابس ، لتبحث

عن ملابس أخرى متسخة فعثرت على النقود « والشيطان شاطر » !

مرت بى عشرة أيام بالقاهرة لا أفعل شيئاً غير أن أهيم على وجهى فى الطرقات . . ضقت بالحانات ودور اللهو ونساء عباس ومدحت ففضلت أن أهيم فى الطرقات ! أركب سيارة أجرة وأطلب من سائقها أن يسير بى على غير هدى . . مائة جنيه أنفقتها فى أشياء تافهة خلال الأيام العشرة . . وعرفت أننى لو استمررت على هذه الحال ، فستبخر منى بقية النقود قبل شهر واحد ، لكننى لم أهتم . . إرادتى كانت عاجزة تماماً ولا أدرى بالضبط ماذا أريد ؟

فكرت للحظة أن أبعث ببقية النقود إلى أمى – التى لم أخبرها عن واقعة السرقة – لكننى عدلت . . حاولت أن أقيم علاقة عاطفية مع فتاة لكننى وجدت نفسى أنزع إلى الجنس كنوع من الانتقام من الجنس الذى تنتمى إليه سعاد ! وقلت لنفسى : إننى سأصبح عدو المرأة رقم واحد ، ولن أدخر جهداً فى التفريق بين أى حبيبين يوقعها سوء الطالع فى طريقى .

ولما رأيت مدحت قد نجح فى بيع ثلاثة أفدنة ، وشرع فى الاستعداد للزواج من ناهد ، شرعت بدورى فى تدبير خطة للحيلولة دون إتمام هذا الزواج . . لكن « عباس » سبقنى وحاول أن يثنى مدحت عن عزمه ، فلقى منه تردداً بين الإقدام على الزواج والإحجام عنه . .

وفى ركن الحجرة طالعتنى أشياء أمينة . . حقيبة اليد السماوية الأنيقة ، تتربع على قمتها كأنها تسند يدها على خدها وتتأمل عالمنا هذا غير المفهوم . . أمينة كانت صادقة مع نفسها . . أحبت « صلاح » فغامرت من أجله . . أرهبتها تهديدات أهلها ، لكنها لم تبرها نقود « المعلم رشاد » كما برت سعاد .

عيب أمينة الوحيد أنها لم تدرس قانون البلاد كما درسه السيد شريف . .

كانت على بعد خطوات من حضن حبيبها ، فجئت أنت تنعق كطائر الشؤم وخربت عشها . . ثم من يدريك أن « سعاد » نفسها لم تقع تحت تهديد يشبه التهديد الذى تعرضت له أمينة ؟ . . هل نسيت انفجارات أمها العفوية تعلن عن سوء طالعها وزوجها الخامل الذى لم « يقفز » كما قفز « المقدام » السيد شريف ؟ . . ما الذى يدريك أن ركناً ما من أركان قلب سعاد لا يخيم عليه الظلام الآن وينغص عليها عيشها ؟ . . هل تذكر اليوم الذى قالت لك فيه : إنها مستعدة أن تسلمك نفسها إذا أردت أنت ؟ ذلك لأنها تثق فيك وأنها رهن إشارتك ؟ . . هل تذكر الحكايات اللطيفة التى كنت تحفظها كى ترويها لها ، فتفاجأ بالحكايات نفسها ترويها لك بعد أن حفظتها أو شيئاً قريباً منها ؟ . . هل تذكر الساعة من النهار التى كنتما تتفقان على أن تخبرا بعضكما بعضاً بما كنتما تفعلان فيها ، فتفاجآن فى أكثر الأحيان بأنكما كنتما تفعلان شيئاً واحداً تقريباً ؟ . . ساعة واحدة كانت كافية للجميع بين صلاح وأمينة ، فماذا لو تأخرت ولو ساعة ؟ . . هأنتذا قد فرقت بينهما ووجدت النقود فماذا فعلت بالنقود؟ . . تتبخّرت منك فى دور اللهو وفى الحانات بحجة أنك « مصدوم » ولابد للمصدوم من أن يفعل هذا . . أليس كذلك ؟ . . أعتقد أنه حان الوقت لكى تعترف فيه لنفسك بأنك تافه !

* * *

الأم تجلس فى الكشك ، مشغولة ببيع سيجارتين لرجل عجوز مجلبب . . اتسعت عيناها حين لمحتنى ، وخرجت من الكشك مسرعة ودارت بيديها حول عنقى تضمنى إلى صدرها . . لم تنطق بكلمة واحدة . . ضمتنى وعادت فأطلقتنى ووقفت تتأمل وجهى وعيناها تطرفان وعلى وجهها تعبير فرح بدائى

ممزوج بالبلاهة . .

ابنتها الصغرى رأتنا فهرولت إلى البيت فى قفزات مرحة ، وعادت ومعها نادية . . أمسكتنى نادية من يدى بيديها الاثنتين ومالت إلى الوراء وصممت على أن « أتفضل » . . وأرسلت فى طلب أبيها ، وكان يوم جمعة فجاء الرجل . فوجئت به شخصية جديدة تختلف تماماً وتلك الشخصية الضعيفة المتخاذلة التى رأيتها يوم السرقة . . رحب بى فى شهامة ، وشدنى من يدى فى ثقة ، وأحضر ثلاثة مقاعد قش من المقهى القريب . . جلسنا خلف الكشك ، وأمامنا برميل مقلوب ، عليه صينية وزجاجة كوكا كولا ، وعلبة سجائر مفتوحة ، وموضوعة « تحت أمرى » .

جاء الطفلان ووقفا قبالتى صامتين ، ولما شجعتهما ، دخلا فى حضنى فى صمت وكأننى أحد أفراد العائلة الغائبين . . وتربعت الأم أمامنا على جوال مفروش ، تنظر إلينا باسمة . . وقالت لى نادية : إنها « زعلانة » منى جداً لأننى منذ « فترة طويلة » لم أزرهم . . ووضع الأب ساقاً على ساق ، ومضى يحدثنى فى ثقة ، عن خطته فى إرجاع الأرض العربية من إسرائيل . . من رأيه أن نسارع باحتلال إنجلترا أولا ؛ لأن « الإنجليز » ناس مثل السوس ، وطالما هم موجودون ، فلن تنتهى مشاكلنا ! وكانت له آراء كثيرة من هذا القبيل فى القضايا العالمية ، لكن الغريب – كما قال – إن أحداً لا يأخذ بها !

وسألته عن « سيد » فقال لى : إنه سافر إلى محافظة « مطروح » فى محاولة للتسلل إلى ليبيا بعد أن حالت « السوابق » دون استخراج تصريح له . . وقال لى : إن « سيد » يشكر فيك طول الوقت ، ويقول : إنه لن ينسى جميلك . .

وبعد نحنحة طويلة وحرج – سألته عن أمينة . . فقالت نادية وكأنها تتنفس الصعداء :

– ربنا أراحنا منها .

ولما هززت رأسي مستفسراً قالت :

– زوجناها .

– من . . صلاح ؟

– المعلم رشاد !

بضعة قراطيس ورقية تتدحرج على يسار الكشك ، تصدر عنها أصوات كالحشرجة ، تصاحبها أصوات طبول ودفوف . . في أعلى الجدار المقابل ، ما يشبه الشاشة السينمائية ، تقف أمينة بثياب العرس البيضاء بجوارها المعلم رشاد بمعطفه الأصفر يفتل شاربه وحولها نسوة يزغردن وشموع . . في الخلفية نساء متشحات بالسواد يلطمن الخدود ، وشفتا أمينة تقتربان شيئاً فشيئاً ، تنفجران لتقولا لي : «كنت تأخرت . . ولو ساعة ! » وصوت المتشحات بالسواد يملأ الجدار بعد اختفائها التدريجي بتوسطهن السيد شريف .

تمت

رقم الإيداع		١٩٨١/١٧١٣
الترقيم الدولي	٩٧٧-٧٣٤١-٤٩-٠	ISBN

١/٨٠/٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)